

المختصر في صناعات الملاك كثر الفقهية

د. عبد الله بن فهد القاضي

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ

ح) دار رسالة البيان للنشر والتوزيع، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاضي، عبد الله بن فهد

المختصر في صناعة الملكة الفقيهة. / عبد الله بن فهد القاضي

- الرياض، ١٤٤٠هـ

ص ١٣٥؛ ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١١٤٢-٨-٤

١- الفقه الإسلامي - بحوث

٢- الفقه الإسلامي - مباحث عامة أ. العنوان

١٤٤٠ / ٦٨٩

ديوي ٧٢، ٢٥٠

رقم الإيداع: ١٤٤٠ / ٦٨٩

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١١٤٢-٨-٤



الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علماً، وسع كل شيء رحمة، أحمده على كماله وإنعامه، ولا أحصي ثناءً عليه، وأستعينه تعالى وأستغفره، وأعوذ به من شر نفسي ومن سيئات عملي، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلِّل فلا هاديَّ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإنَّ العلم المستفاد من وحي الله تعالى إلى رسوله ﷺ هو أشرف العلوم وأنفعها؛ فبه يُعرف الله تعالى وتُعرف حدوده والطريقُ الموصلة إليه، وهو الأساس للإيمان والعمل الصالح اللذين هما عماد السعادة في الدارين، وهو إرث الأنبياء، وطلبه ابتغاء وجه الله تعالى لا يعدله عمل.

وفي ذروة هذا العلم الشريف علمُ الفقه، وأعني به: معرفة الأحكام الشرعيَّة العمليَّة بأدلتها، الذي يُعرف به الحلال والحرام، ويميزُ بين الصحيح والفساد، والمقبول والمردود، من عبادات الناس ومعاملاتهم؛ فهو مظهر كمال الشريعة وحكمتها وقيامها بمصالح العباد في حياتهم الدنيا والأخرى.

وإذا كان من الواجب المتعين على كل مسلم أن يأخذ من هذا العلم - علم الفقه - بنصيب، وذلك بأن يعلم حكم الشرع في الأمور التي يلزمه العمل بها، فإن من الواجب الكفائي على الأمة جمعاء أن يقوم منها طائفة تنهض بأعباء هذا العلم وتقوم بحقه، رواية ودراية ورعاية؛ إقامة لدين الله، وتبيناً له، ونصحاً لعباده.

ولما كان الفقه في حقيقته هو الفهم، وكانت الغاية من تعليمه أن يكتسب متعلمه صفة راسخة يهتدي بها إلى معرفة أحكام الشريعة وعللها وغاياتها، ويبصر بها منهج الشرع في حادث النوازل، ويواجه مشكلات الحياة ومتغيراتها ببصيرة وثبات، يفعل ذلك كله على وجه من اليسر والسهولة، في سجية لا يحتاج معها إلى تكلف في الاستدلال ولا معاناة.

لما كان الفقه الحق هكذا، وكانت الغاية من تعليمه تلك، كان حقاً على طالب العلم أن يجعل تحصيل تلك السجية غايته، وأن يسلك من مسالك التعلم ما يقربه منها ويكسبه إيّاها، وكان حقاً على الفقيه المعلم أن يعين طلابه على الاقتراب من تلك الرتبة العالية، وأن يذلّ لهم سبلها.

وفي هذا السبيل يأتي هذا الكتاب مشتملاً على أبرز ما يُهمُّ مُعَلِّم الفقه ومتعلمه، من حقيقة الملكة وشروط اكتسابها، مختصراً من رسالة الدكتوراة الموسومة بـ (الملكة الفقهية: دراسة استقرائية تطبيقية).

والله تعالى المسؤول أن يكتب لهذا العمل النفع والقبول.

التَّعْرِيفُ بِالْمَلَكَةِ الْفَقْهِيَّةِ

التَّعْرِيفُ بِالْمَلَكَةِ الْفَقْهِيَّةِ

الْمَلَكَةُ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ:

مصدر مَلَكٌ يَمْلِكُ: احتوى الشيء قادراً على الاستبداد به^(١).

الْمَلَكَةُ فِي الْإِصْطِلَاحِ:

الصِّفَةُ الرَّاسِخَةُ فِي النَّفْسِ^(٢).

(١) انظر مادة (م ل ك) في: العين (٣٨٠/٥)، تهذيب اللغة (٢٦٩/١٠)، أساس البلاغة (٢٢٧/٢)، مقاييس اللغة (٣٥١/٥)، الصحاح (١٦١١/٤)، المحكم (٤٤/٧)، المخصص (٣٢٣/١)، لسان العرب (٤٩٢/١٠)، القاموس المحيط ص ٩٥٤، المصباح المنير ص ٤٧٤، تاج العروس (٣٤٦/٢٧).

(٢) انظر: التعريفات ص ٢٢٩، الكليات ص ٣٧٤، التوقيف على مهمات التعاريف، ص ٦٧٥، كشف الظنون (٣٥/١)، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (٢٢٨/٣)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١٣٩٦/٢)، التقرير والتحرير (١٨/١)، (٢٤٢/٢)، التحرير شرح التحرير (٢٦٢/١)، تيسير التحرير (١١/١)، غاية الوصول في شرح لب الأصول ص ١٥٥، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي (١٧٤/٢، ٤٢١).

وتطلق المَلَكَةُ في الاصطلاح الفلسفي أيضاً على ما يقابل العدم، والمَلَكَةُ بهذا المعنى: هي الاستعداد والقابلية، فيعرفونها بأنها: كل معنى وجوديٍّ أمكن أن يكون ثابتاً للشيء، والعدمُ المقابل له: ارتفاع هذه المَلَكَةِ. وبعبارة أخرى: القدرة على الفعل أو الترك. فيقال مثلاً: الحيوان له مَلَكَةُ السمع والبصر، أي أنه قابل لهذا الصفة، بخلاف الحجر فهو غير قابل لها. انظر: غاية المرام في علم الكلام ص ٥١، التدمرية بتحقيق د. محمد السعوي ص ١٥٣ (حاشية)، المعجم الفلسفي، ص ١٩٢، برقم (١٠٠٠)، الكليات ص ٨٥٦، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١١٨٩/٢)، المعجم الوسيط (ملك) (٨٨٦/٢).

وذلك أنَّ النَّفس إذا فعلت فعلاً ما صار لها كَيْفِيَّةٌ نَفْسِيَّةٌ تُسَمَّى حالاً، ومن شأن الحال أن يكون سريع الزوال، فإذا تَكَرَّرَ الفعل ومارسته النَّفس حتى رسخت تلك الكَيْفِيَّةُ وصارت بطيئة الزوال قيل لها مَلَكَةٌ^(١).

ومثال ذلك: طالب علم النحو يتعلَّم قواعده ويتدرَّب على التزامه منطقَه ويحاول إصابة الإعراب في حديثه وكتابه، فإذا ما استمرَّ في ذلك ودوام تَكَرُّره صار النُّطق على الوجه العربيَّ الصحيح ملكةً مُستقرَّةً له، لا يحتاج فيها إلى تذكُّر القواعد، بل يجري على لسانه سهلاً حاضراً دون تكلُّف.

ومن ذلك: الملكة التي تكون لنقاد المحدثين من دوام نظرهم في متون الأحاديث وأسانيدها، فيكون لأحدهم بصيرة يميز بها السقيم من الحديث، ولو لم يقف له على علةٍ معيَّنة أو ضعف ظاهر، يقول ابن دقيق العيد رحمته الله: أهل الحديث كثيراً ما يحكِّمون على الحديث بالوضع باعتبار أمور ترجع إلى المروِّي وألفاظ الحديث، وحاصله يرجع إلى أنه حصلت لهم لكثرة محاولة ألفاظ الرِّسُول ﷺ... ملكة يعرفون بها ما يجوز أن يكون من ألفاظ النَّبِيِّ ﷺ وما لا يجوز أن يكون من ألفاظه^(٢).

(١) انظر: التعريفات (الموضع السابق)، الكليات (الموضع السابق)، جامع العلوم (الموضع السابق).

(٢) الاقتراح في بيان الاصطلاح ص ٢٥ بتصرف يسير.

وهذا يجري في كلِّ المهارات والعلوم التي لها جانب تطبيقيّ كالْحِسَاب والطَّبِّ، وكالرياضات البدنيَّة، ويجري أيضًا في المهن والحرف، كالنَّجَارَة والحِدَادَة، وبه أيضًا تكتسب الأخلاق الحميدة، كما يجري في الأفعال التي يزاوها الإنسان في حياته ويحتاج في بدء اكتسابها إلى دُرْبَة وتَمَرُّن، كقيادة السيَّارة والسَّباحة والكتابة بالحاسب الآليّ، فإنَّه في أوَّل تعلُّمها يستطيع الاتِّيان بها لكن بعناء وتذكُّر، ثمَّ تصبحُ ملكات قارَّة.

ويصف هذه الحقيقة نجم الدين الطوفيّ فيقول: «من المعلوم بالوجدان أنَّ النَّفوس يصير لها فيما تعانیه من العلوم والحرف ملكات قارَّة فيها، تدرك بها الأحكام العارضة في تلك العلوم والحرف... ويسمِّي ذلك أهل الصناعات وغيرهم: دُرْبَة، وأهل التَّصَوُّف: ذوقًا، وأهل الفلسفة ونحوهم: مَلَكَة.

ومثال ذلك: الدَّلالون في الأسواق قد صار لهم دُرْبَة بمعرفة قيم الأشياء؛ لكثرة دورانها على أيديهم ومعاناتهم، حتى صاروا أهل خبرة يُرجع إليهم شرعًا في قيم الأشياء، فيركب أحدهم الفرس فيسوقه أو يراه رؤيةً مجرَّدة، أو يأخذ الثوب أو غيره من الأعيان على حسب ما هو دَلال فيه، فيقول: هذا يساوي كذا، أو قيمته كذا، فلا يخطئ بحجة زيادة ولا نقصًا»^(١).

(١) شرح مختصر الروضة (٣/١٩٢).

ويعرّف الشيخ الطاهر بن عاشور رحمته الله الملكة، مبيّنًا أنّ تحصيلها هو القصد من تعلّم جميع العلوم، فيقول: «ما القصد من كلّ علم إلا إيجاد الملكة التي استُخدم لإصلاحها، ونعني بالملكة: أن يصير العمل بتعليمات العلم سجيّة للمتعلّم لا يحتاج معها إلى مشايعة القواعد إياه»^(١).

فالملكة مؤلّفة من أمرين: معرفة بأمر ما، ورسوخ في تلك المعرفة، ويظهر أثر ذلك في قدرة صاحب الملكة على الفعل على وجه من اليسر والسهولة والطّمأنينة والثقة؛ لكون الفعل يصدر منه عفوًّا كالطّبيعة والسجيّة، كما أنّ الفعل يصدر منه على وجه صحيح؛ إذ لا معنى لسهولة الفعل ما لم يأت على الوجه الصحيح، ويكون صاحب الملكة قادرًا على التصرّف في الأحوال المتغيّرة، قادرًا على الإبداع والابتكار، ذا دقّة واطّراد يسلم به من التناقض والتّخبط.

والملكة بهذا المعنى تقابل ما يعرف في علم النفس التربويّ بـ(المهارة)، التي تُعرّف بأنها: القدرة على القيام بنشاط عقليّ أو انفعاليّ أو حركيّ أو جميع ذلك، ويتطلّب تعلّمها أو اكتسابها السهولة والدقّة واقتصاد الوقت في أدائها^(٢).

(١) أليس الصبح بقريب ص ١٥٧.

(٢) سيكولوجية المهارات ص ١٥.

من عبارات العلماء عن الملكة الفقهية:

جاءت عن العلماء -رحمهم الله- عبارات مفسِّرة لحقيقة الملكة الفقهية وكاشفة لها، إما بتوضيح حقيقتها، أو بالتعريف بآثارها ولوازمها الدالة على اتِّصاف صاحبها بالملكة، وقد جاءت عنهم في سياق تعريفهم بالفقيه، أو المجتهد المتأهِّل للإفتاء، أو وصفهم الفقه المأمول الذي ينبغي للمتفكِّه أن يتَّخذه غاية في طلبه.

فمن تلك الكلمات:

- «ليس الفقه حملُ الفقه، وإنما الفقه معرفة الفقه، والفتنة فيه، والفهم بمعانيه»^(١).
- «اسم الفقيه واقع على صفةٍ في المرء، وهي فهمه لما عنده وتنبُّهه على حقيقة معاني ألفاظ القرآن والحديث، ووقوفه عليها، وحضور كلِّ ذلك في ذكره متى أَراده»^(٢).
- «إذا لم يتكلَّم الفقيه في مسألة لم يسمعها ككلامه في مسألة سمعها فليس بفقيه»^(٣).
- العالم مَنْ «يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه

(١) لسعيد بن الخداد المالكي. رياض النفوس (٢/ ٦٩).

(٢) لابن حزم. الإحكام شرح أصول الأحكام (٢/ ١٢٤).

(٣) لأبي حامد الغزالي. نقله عنه الزركشي في البحر المحيط (١/ ٢٤).

بصفاء قلبه، لا على الصُّحف والكتب، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره، وإنما المقلِّد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله»^(١).

• «المفتي هو المتمكِّن من درك أحكام الوقائع على يسرٍ من غير معاناة تعلُّم»^(٢).

• «إنما الحَبْر مَنْ يُملي عليه قلبه ودماغه، وتبرز التحقيقات التي تشهد الفطر السليمة بأنها في أقصى غايات النظر، مشحونة باستحضار مقالات العلماء، مشارًا فيها إلى ما يستند الكلام إليه من أدلة المنقول والمعقول، يرمز إلى ذلك رمز الفارغ منه الذي هو عنده مقرَّر واضح»^(٣).

• «الفتيا لا تحقُّ إلا لمن كان له ملكة فقهية، وصار فقيه النفس، واختلط الفقه بلحمه ودمه، حتى يقدر على أن يقول فيما لم يطالع من المسائل برأيه فيكون مطابقًا لقول العلماء»^(٤).

(١) لأبي حامد الغزالي. إحياء علوم الدين (١/ ٢٩٠).

(٢) لأبي المعالي الجويني. غياث الأمم، ص ٤٨٠، وقد نقلها عنه ابن الصلاح في أدب المفتي والمستفتي ص ٢٦، وابن حمدان في صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ص ١٧.

(٣) لتاج الدين السبكي. طبقات الشافعية الكبرى (١/ ١٠٠).

(٤) لابن حجر الهيتمي. الفتاوى الفقهية الكبرى (٤/ ١٩٢).

• «الفقيه حقيقةً: من له أهليَّة تامَّة يعرف بها الحكم إذا شاء بدليله»^(١).

• من شروط المجتهد: «أن يكون فقيه النَّفس، أي: له قدرة على استخراج أحكام الفقه من أدلَّتْها... فتضمَّن ذلك أن يكون عنده سجيَّة وقوَّة يقتدر بها على التصرُّف بالجمع والتفريق والترتيب والتصحيح والإفساد؛ فإنَّ ذلك ملاك صناعة الفقه»^(٢).

• «العلوم ما دُوِّنت إلا لترقية الأفكار وصقل مرائي العقول، وبمقدار ما يفيد العلم من ذلك ينبغي أن يزداد في اعتباره، فما القصد من كلِّ علم إلا إيجاد المَلَكَةِ التي استخدم لإصلاحها، ونعني بالملَكَة: أن يصير العمل بتعليمات العلم سجيَّةً للمتعلم لا يحتاج معها إلى مشايعة القواعد إياها»^(٣).

• «ليس العلم رموزاً تُحلُّ، ولا كلمات تُحفظ، ولا انقباضاً وتكلفاً، ولكنَّه نور العقل واعتداله وصلاحيَّته لاستعمال

(١) لابن حمدان. صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ص ١٤، وانظر: المسودة (٩٩٨/٢)، شرح الكوكب المنير (٤٢/١).

(٢) علاء الدين المرداوي، التحبير شرح التحرير (٣٨٧٠/٨).

(٣) للطاهر بن عاشور. أليس الصبح بقريب ص ١٥٧.

الأشياء فيما يُحتاج إليه منها، فهو استكمال النفس، والتطهر من الغفلة، والتأهل للاستفادة والإفادة، وما كانت العلوم المتداولة بين الناس إلا خادمة لهذين الغرضين، وهما: ارتقاء العقل لإدراك الحقائق، واقتدار صاحبه على إفادة غيره بما أدركه هو؛ إذا فالعلوم التي تدرّس إن لم تكن الغاية منها ما ذكرنا فهي عبارة عن إضاعة العمر وامتلاء الدماغ، ولا يكاد يبلغ المتعلّم الغاية المذكورة إلا متى تلقى العلوم بيقظة، وراقب غاياتها في أعماله، كمرقبة قواعد النحو في التكلم، وقواعد الفقه في المعاملة، وقواعد المنطق في الفهم والإفهام، فإن هو لم يفعل وتعاطى العلوم عن ذهول بما تقرّر، كان قد أضاع زمنًا في التعلّم عن غير استثمار، إلا ألفاظًا حفظها»^(١).

• «طالب العلم إذا استمرّ في طلبه... [يبلغ] أن ينتهي بالنظر إلى تحقيق معنى ما حصل على حسب ما أدّاه إليه البرهان الشرعيّ، بحيث يحصل له اليقين ولا يعارضه شكّ، بل تصير الشكوك إذا أوردت عليه كالبراهين الدالة على صحّة ما في يديه، فهو يتعجّب من المتشكّك في محصولة كما يتعجّب من ذي عينين لا يرى ضوء النهار، لكنّه استمرّ به الحال إلى أن زلّ محفوظه عن حفظه حكمًا، وإن كان

(١) للطاهر بن عاشور. أليس الصبح بقريب ص ٢١٠-٢١١.

موجوداً عنده، فلا يبالى في القطع على المسائل، أنصَّ عليها أو على خلافها أم لا»^(١).

- ويقول أبو الوليد بن رشد في كتابه بداية المجتهد: «رأينا أن نذكر في هذا الكتاب»^(٢) سبع مسائل مشهورة تجري مجرى الأصول لما يطرأ على المجتهد من مسائل هذا الباب، فإنَّ هذا الكتاب إنَّما وضعناه ليلبغ به المجتهد في هذه الصناعة رتبة الاجتهاد إذا حصَّل ما يجب له أن يحصل قبله من القدر الكافي له في علم النَّحو واللُّغة وصناعة أصول الفقه... وبهذه الرتبة يسمَّى فقيهاً، لا بحفظ مسائل الفقه ولو بلغت في العدد أقصى ما يمكن أن يحفظه إنسان، كما نجد متفكِّهة زماننا يظنُّون أنَّ الأفقه هو الذي حفظ مسائل أكثر، وهؤلاء عُرض لهم شبيه ما يُعرض لمن ظنَّ أن الخفاف هو الذي عنده خفاف كثيرة، لا الذي يقدر على عملها، وهو بيِّن أنَّ الذي عنده خفاف كثيرة سيأتيه إنسان بقدِّم لا يجد في خفافه ما يصلح لقدمه، فيلجأ إلى صانع الخفاف ضرورة، وهو الذي يصنع لكل قدم خفاً يوافقه، فهذا هو مثال أكثر المتفكِّهة في هذا الوقت»^(٣).

(١) للشاطبي. الموافقات (٤/ ١٣١-١٣٢).

(٢) كتاب الصرف، من بداية المجتهد.

(٣) بداية المجتهد (٣/ ١٢٨٤).

وقد أوضحت هذه الكلمات أنَّ الملكة ليست حفظ فروع الفقه ولا أصوله، ولكنها الفهم للكتاب والسُّنة، والتَّبَهُ لمعانيهما ومضامينهما وعلل أحكامهما، والقدرة على استحضار ذلك عند الحاجة، وأن تنطبع النفس بطابع العلم حتى تستطيع معرفة حكم ما لم يمرَّ عليها من المسائل ولم تسمع به، وتستطيع الاستدلال لما تأتي به من حكم، حتى تكون قدرتها على ذلك كقدرتها على ما سمعت منها، مع التمكن من الاجتهاد والتصرُّف في الأحوال المتغيرة بإعطاء كلِّ حال حكمها اللائق بها، والجمع بين مقاصد الشريعة، ورعاية كلِّ من كُليَّاتها وجزئياتها، ثم يأتي ذلك كله سمحاً يسيراً.

خصائص الملكة الفقهية:

يتحدَّث خبراء علم النفس التربويِّ عن خصائص المهارة، وهي خصائص نجدها ظاهرة في المهارة الفقهية (الملكة)، فمن خصائص المهارة^(١):

- أنَّها مزيج مركَّب من عناصر عدَّة، فهي تتضمَّن معارف ومعلومات، وقدرات عقلية، وقد تحوي عددًا من المهارات الفرعية الجزئية التي تتصف بالتكامل فيما بينها، وقد يبلغ الامتزاج بين هذه العناصر مبلغ التعقيد، بحيث

(١) انظر: علم النفس التربوي ص ٦٥٨-٦٦١، سيكولوجية المهارات ص ٢٣-٣٢، تعليم التفكير ومهاراته ص ٢٧٩.

- يختلف الخبراء في وصف الطبيعة الدقيقة للمهارة.
- أنَّها تُكتسب بالجمع بين المعرفة النظرية والممارسة والتدريب.
 - أن صاحب المهارة يستطيع القيام بها بتلقائية وعفوية (الدقة مع السرعة).
 - قدرة صاحب المهارة على أدائها حتى في الأحوال الصعبة والمتغيرة.
 - ثقة صاحب المهارة بأدائه، وزوال مشاعر التردد والتوتر.
 - زيادة المرونة في الأداء، والقدرة على توقُّع النتائج؛ نتيجة للتأهب للظروف أو الشروط أو المواقف المتغيرة، ونقص الشعور بالمفاجأة في أثناء الأداء.
 - النمو المتدرِّج، فالمتعلِّم يكتسبها على مرِّ الوقت، فيبدأ وهو قليل المهارة، ويرتقي شيئاً فشيئاً، في نموٍّ لا يبدو جلياً إلا عند المقارنة بين حال المتعلِّم في بدء التعلُّم والتمرُّن وحاله بعد وقت طويل من التعلُّم.
- ومن المهمُّ هنا التنبيه على خصيصتين من خصائص ملكة الفقه، هما: التدرُّج، والتجزؤ.

وذلك أنَّ الحديث عن الملَكة الفقهية ووصف ما كان عليه العلماء منها قد يؤدي إلى وهم ضارٌّ بطالب العلم، هو اعتقاد بُعْدِ منال هذه الرتبة، وأنها درجة خالصة للمجتهدين، وقد يكون لهذا الوهم ما يقوِّيه، مثل بعض التعريفات للملَكة التي تساوي بينها وبين الاجتهاد المطلق.

والواقع أنَّ الملَكة الفقهية مستويات عدَّة، والفقهاء الذين ثبتت لهم ملَكة الفقه ليسوا طبقاً واحداً في الفقه، فالفقه رتب ومنازل، ولكلُّ رتبة ملكاتها وأحكامها.

وإغفال هذه السَّمة من سمات الملَكة له آثار سيئة في مقام التصوُّر وفي مقام الممارسة، فهو يجعل النظر إلى الملَكة كما لو كانت مستوى واحداً، هو مستوى الاجتهاد المطلق.

والذي يزيل هذا الوهم هو كشف جانب مهمٍّ من حقيقة الملَكة، هو أن اكتساب الملَكة -أي ملَكة- هو حالة متجزئة متدرِّجة، ينالها الطالب درجة درجةً وجزءاً جزءاً حتى تتناهى وترسخ، وإنَّ حضور هذه الحقيقة لأمر مهمٍّ للمعلم والمتعلم سواء.

فتمام الملَكة الفقهية هو الحال التي عليها المجتهدون المستقلُّون، ولكنَّ قدرًا من هذه الملَكة متأتُّ لطالب العلم متى كان صحيح الفهم، كما أنَّ قدرًا آخرَ فوقه ممكن لهذا الطالب متى تدرَّج في الأخذ

بأسباب اكتساب الملكة، وقصور الطالب عن عُلى مراتب الملكة لا يُلجئه إلى ترك ما هو قادر عليه منها، فما لا يُدرك كله لا يُترك كله، وطلبه لما هو متيسر له من مراتب الملكة يؤدي به إلى ما هو أرفع منه على سبيل الترقّي المتدرّج، فالملكة لا تأتي طفرة.

ويُضاف إلى هذا أنّ وصف المرء بأنّه مقلّد أو مجتهد ليس وصفاً لازماً له في كلّ أحواله، بل هو وصف إضافيٌّ، أي أنّ الفقيه ربما كان في بعض المسائل والأبواب مجتهداً، وفي بعضها مقلّداً.

وفائدة التنبّه إلى هذا تأكيدٌ ما سبق من أنّ قصور الطالب عن ملكة الاجتهاد لا يمنعه من محاولة درجة الاتّباع وتحصيل ملكته^(١)، وعجزه عن الاجتهاد في الأبواب كلّها لا يمنع من التأهّل له في بعض الأبواب والمسائل، وضعفه عن استنباط الأحكام الخفيّة لا يمنعه من مزاوله الاستدلال بالطرق الظاهرة المقدور عليها.

(١) يقول ابن عبد البر -رحمه الله-: «التقليد عند جماعة العلماء غير الاتّباع؛ لأنّ الاتّباع هو أن تتبع القائل على ما بان لك من فضل قوله وصحة مذهبه، والتقليد أن تقول بقوله وأنت لا تعرفه ولا وجه القول ولا معناه»، جامع بيان العلم وفضله (٣٧/٢).

ويقول ابن تيمية -رحمه الله-: «أكثر من تميّز في العلم من المتوسطين إذا نظر وتأمل أدلة الفريقين بقصد حسن ونظر تام ترجح عنده أحدهما، لكن قد لا يثق بنظره، بل يحتمل أن عنده ما لا يعرف جوابه، والواجب على مثل هذا موافقته للقول الذي ترجح عنده بلا دعوى منه للاجتهاد» الفروع (١٠٩/١١)، الأخبار العلمية في الاختيارات العلمية ص ٤٨١.

وليس المقصود في هذا الموضع تحديد رتب الملَكة وتمييز بعضها عن بعض؛ فهذا أمر تقديريٌّ اجتهاديٌّ، ويمكن الاستفادة فيه من الترتيب التقريبي الذي نبّه عليه ابن الصّلاح رحمته الله^(١)، وإنّما المقصود الأوّل التنبيه إلى تفاوت أهل الفقه فيه مع استحقاقهم جميعاً وصف الملَكة، وأنّ الملَكة الفقهية لا تنحصر في ملكات الاجتهاد المطلق، فالفقه درجات، ولكل درجة ملكاتها؛ فللفقيه المجتهد اجتهاداً مطلقاً ملكات في الاستنباط والاستدلال لا يتقيّد فيها بأصول مذهب معيّن، وللمجتهد في المذهب ملكة في الاستدلال لكنّه لا يخرج فيها عن أصول إمامه، وله أيضاً ملكات في التخيّج على الأصول وعلى الفروع، ولمن دونه من فقهاء الفتوى ملكات في فهم النصوص الفقهية وتنزيلها على الوقائع، والترجيح بين الأقوال.

الكلمات المرادفة للملَكة في لسان السلف والعلماء:

إذا تبيّن مدلول (الملَكة) فتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الكلمة ليست قديمة الاستعمال في لسان السلف والفقهاء، فهي اصطلاح استعمله أوّلاً أصحاب العلوم العقلية، ثم نفذ إلى العلوم الشرعية مارّاً بعلم المنطق، فشاع في كلام المتأخّرين، واستعملوه في كتبهم وشروحهم، ولا سيّما كتب أصول الفقه ومصطلح الحديث^(٢).

(١) في أدب المفتي والمستفتي (١/ ٢١-٣٧).

(٢) انظر: الملَكة الفقهية حقيقتها وشروط اكتسابها وثمراتها ص ٣٣، ٤١.

لَكِنَّ مَدْلُولَ (الْمَلَكَةِ) حَاضِرٌ فِي كَلَامِ السَّلَفِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَفِي كَلَامِ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ، وَقَدْ عَبَّرُوا عَنْهُ بِالْكَلِمَاتِ الْآتِيَةِ:

● الفقه:

الفقه هو الفهم، وهو مصدر لـ (فَقَّهَ يَفْقُهُ)، إِذَا صَارَ الْفَقْهُ سَجِيَّةً لَهُ^(١)، وَصَاحِبَ هَذِهِ السَّجِيَّةِ هُوَ الْفَقِيه، وَفِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «رُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»^(٢)، فَرَّقَ بَيْنَ حَامِلِ الْفَقْهِ وَالْفَقِيهِ، وَبَيَّنَ لَكُنْ الْفَقْهُ هُوَ الْفَهْمُ وَالْوَعْيُ.

وَفِي التَّعْرِيفِ الْإِصْطِلَاحِيِّ الْمَشْهُورِ لِلْفَقْهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْفَقْهُ الْحَقُّ هُوَ الْمَلَكَةُ، وَأَنَّ الْفَقِيهَ هُوَ ذُو الْمَلَكَةِ، لَا الَّذِي يُحْفَظُ الْمَسَائِلَ، فَتَعْرِيفُ الْفَقْهِ بِأَنَّهُ: (مَعْرِفَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْفُرْعِيَّةِ بِالْفِعْلِ أَوْ بِالْقُوَّةِ الْقَرِيبَةِ)^(٣) مَبِينٌ لَذَلِكَ، مِنْ جِهَةِ أَنَّ (الْمَعْرِفَةَ بِالْقُوَّةِ) هُوَ

(١) انظر مادة (ف ق هـ) في: العين (٣/ ٣٧٠)، تهذيب اللغة (٥/ ٤٠٤)، مقاييس اللغة (٤/ ٤٤٢)، الصحاح (٦/ ٢٢٤٣)، لسان العرب (١٣/ ٥٢٢)، القاموس المحيط ص ١٢٥٠، الفقيه والمتفقه (١/ ١٨٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ١٨٣) برقم (٢١٥٩٠) وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، برقم (٣٦٦٠)، والترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، برقم (٢٦٥٦)، وابن ماجه في سننه، كتاب السنة، باب من بلغ علماً، برقم (٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت، وصححه البوصيري والألباني. انظر: مصباح الزجاجة (١/ ٣٢)، سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٦٧٠).

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير (١/ ٤١).

امتلاك القدرة والأهلية للمعرفة^(١)، وكذا تعريف الفقه بأنه: (العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية)^(٢)؛ لأن الذي يعرف الحكم بدليله هو المجتهد ذو الملكة؛ ولهذا قال ابن حمدان: «الفقيه على الحقيقة... من له أهلية تامة يمكنه أن يعرف الحكم بها إذا شاء بدليله...؛ فكل فقيه حقيقة مجتهد»^(٣).

• فقه البدن.

• فقه النفس.

• فقه الطبع.

لقد كان الاقتصار على كلمة (الفقه) و(الفقيه) كافياً في الدلالة على المراد بحسب اللغة، لكن التجوّز الذي حدث في استعمال اسم (الفقه)، والترخّص في إطلاق اسم (الفقيه) على من يحفظ الفروع وإن لم يكن عارفاً بما أخذها قادراً على الاجتهاد؛ دعوّا العلماء إلى الاحتراز وتقييد (الفقه) بإضافته إلى البدن أو النفس أو الطبع؛ أيضاً منهم أن الفقه الحق هو ما كان فقه وعي، لا فقه رواية وحمل.

(١) شرح الكوكب المنير (١/٤٢).

(٢) انظر: نهاية السؤل (١/١٩)، جمع الجوامع مع شرح المحلي (١/٤٣).

(٣) صفة الفتوى والمفتي ص ١٤، وانظر أيضاً: شرح الزركشي على مختصر الخرقي (٧/٢٣٨)، التقرير والتحجير (٣/٢٩١)، شرح الكوكب المنير (٤/٤٥٩-٤٦٠).

(٤٦٠)، الفكر السامي ص ١٨.

ولعل (فقيه البدن) أقدم هذه الكلمات استعمالاً^(١)؛ وفيها وُصف البدن -وهو الجسد- بالفقه تعبيراً عن امتزاجه به، كما قيل عن عمر بن محمد الشيرزي: «لو فصد عمر لجرى منه الفقه مكان الدم»^(٢).

وكذلك (فقيه النَّفس) استُعملت في التراجم^(٣)، وفي كتب الأصول في صفات المجتهد^(٤).

و(فقيه البدن) عبارة المحدثين، و(فقيه النَّفس) عبارة الأصوليين^(٥).

(١) فقد وصف بها زائدة بن قدامة (ت: ١٦١هـ) أبا حنيفة. انظر: مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه، ص ٢٩.

ويحيى بن بكير (ت: ٢٢٦هـ) الليث بن سعد. انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٥٢٤). والإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٢٨هـ) أحمد بن سعيد الدارمي. انظر: الكاشف للذهبي (١/ ٤٣).

ويعقوب بن شيبه (ت: ٢٦٢هـ) يحيى بن آدم. انظر: تهذيب الكمال (٣١/ ١٩١)، تاريخ الإسلام (١٤/ ٤٣٢).

وأبو حاتم الرازي (ت: ٢٧٧هـ) الإمام الشافعي. انظر: آداب الشافعي ومناقبه، ص ٨٩.

(٢) معجم البلدان (٣/ ٣٨٢).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٦٧)، (٣/ ٥١)، (٤/ ٥٢١)، (٥/ ١٢٠).

(٤) انظر: غياث الأمم ص ٤٨٠، ٤٩٣، البرهان ص ١٣٣٢، المجموع (١/ ٩٥، ١٠٠)، الوابل الصيب ص ٢٣٢، البحر المحيط (٦/ ٢٣٣، ٨/ ٢٧٢)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٢٣، ٢٣٣.

(٥) انظر: حلية طالب العلم ص ٥٧، مقدمة تحقيق كتاب: الكاشف في معرفة له رواية في الكتب الستة، ت. محمد عوامة (١/ ٤٣)، نقلاً عن شيخه عبد الله الغماري.

وفي معنى هاتين الكلمتين نجد للجويني عبارة ثالثة هي (فقه الطَّبع)، والطَّبع هو السَّجِّية التي جُبِلَ عليها الإنسان^(١)، وفيها تأكيد لمعنى الرُّسوخ والتمكُّن، فيقول: «لا يستقلُّ بنقل مسائل الفقه من يعتمد الحفظ ولا يرجع إلى كَيْسٍ وفطنة وفقه طبع...»^(٢).

• العلم:

يطلق (العِلْم) في الاستعمال العربي وفي الاصطلاح العلمي ثلاثة إطلاقات:

أحدها: إطلاقه على الإدراك^(٣)، فمن أدرك شيئاً قيل: هو عالم به، وعلى هذا الإطلاق عُرِّف العلم بأنَّه: المعرفة^(٤)، وعُرِّف في لسان أهل الاصطلاح بأنَّه: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً^(٥).

الإطلاق الثاني: نفس الشيء المدرك، أي: المعلوم^(٦)، ومن هذا الاستعمال قول النَّبِيِّ ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً...»^(٧)، ومن هذا الباب أيضاً إطلاق العلم على مجموع المسائل والقواعد التي يجمعها موضوع واحد وتعالج بمنهج معيَّن، فيقال: علم الفقه، وعلم النَّحو...

(١) القاموس المحيط (طبع) ص ٧٤٣.

(٢) غياث الأمم ص ٤٨٩.

(٣) انظر: الحاشية على المطول ص ٤٨، أبجد العلوم (١/ ١٢).

(٤) انظر: الصحاح (٥/ ١٩٩٠)، القاموس المحيط ص ١١٤٠.

(٥) انظر: التعريفات ص ١٥٥، أبجد العلوم (١/ ٢٦-٣١).

(٦) انظر: الحاشية على المطول ص ٤٨، أبجد العلوم (١/ ١٢).

(٧) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، برقم (٢٦٩٩)، عن أبي هريرة ؓ.

الإطلاق الثالث: الملكة الغريزية الحاصلة بتوالي الإدراكات^(١).
 فيُطلق (العلم) على معرفة الفقيه بالفقه إذا أصبحت معرفة راسخة، وهذا الإطلاق للعلم مطابق للملكة.
 فإطلاق العلم على الملكة استعمال عربيٌّ أصيل، ومن شواهد: جمع العرب لـ (عالم) على (عُلماء)، وكان القياس أن تُجمع على (عالمين)، وهذا الصيغة من الجمع -أعني (فُعلاء)- إنما تستعمل لجمع (فَعِيل)، كما يقال: كبير وكبراء، وأمير وأمراء، فجمع (عالم) على (علماء) جاء تشبيهاً له بـ (عليم) المفيد للمبالغة، كما جُمع (شاعر) على (شعراء) لَمَّا كان الشعر ملكة غريزية.

يقول أبو الفتح بن جني: «لَمَّا كان العلم إنما يكون الوصف به بعد المزاولة له وطول الملابس صار كَأَنَّهُ غريزة ولم يكن على أوّل دخوله فيه، ولو كان كذلك لكان متعلِّماً لا عالماً؛ فلَمَّا خرج بالغريزة إلى باب (فَعَل) صار (عالم) في المعنى كـ (عليم)؛ فكُسِّر تكسيره»^(٢).

• الرُّسوخ:

رسوخ الشيء: ثباته ثباتاً متمكناً... والرَّاسِخُ في العلم: المتحقِّق به، الذي لا يعرضه شبهة^(٣)، وقد سبق أنَّ الملكة هي الصفة الرَّاسخة.

(١) انظر: الحاشية على المطول ص ٤٨، أبجد العلوم (١/ ١٢).

(٢) الخصائص (١/ ٣٨٢).

(٣) المفردات في غريب القرآن (رسخ) ص ٢٥٨.

ولا استعمال هذه الصفة مزية، هي موافقة القرآن، فقد وصف الله تعالى العلماء بالرُسوخ في قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وقوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢].

الملكة الفقهية اصطلاحاً:

بعد أن أطلعنا على تعريف الملكة في اللغة والاصطلاح، وعلى الطبيعة النفسية للملكة وخصائصها، وعلى جملة من عبارات العلماء المؤدية لدلول الملكة؛ فإننا نستطيع الآن إيجاز تعريف الملكة الفقهية بأن نقول:

هي القدرة الراسخة في النفس، التي يتمكن صاحبها من معرفة الأحكام الشرعية وتنزيلها على الوقائع^(١).

فقولنا: (القدرة الراسخة في النفس) وصف لحقيقة الملكة، تشارك فيه الملكات كلها.

وقولنا: (التي يتمكن صاحبها من معرفة الأحكام الشرعية)، يشمل معرفة الأحكام الشرعية بطريق الاجتهاد وطريق التقليد، فيندرج فيه ملكات المجتهد اجتهاداً مطلقاً، وملكات المقلد تقليدًا

(١) الملكة الفقهية حقيقتها وشروط اكتسابها وثمراتها ص ٦٦.

تأمًّا، وما بينهما من رُتب؛ فكلُّ من هؤلاء له معرفة بالأحكام الشرعيَّة تليق برُتبته في الفقه، ولكلُّ رتبة من هذه الرتب ملكاتها، فللمجتهد ملكات الاستنباط من النُّصوص والجمع والترجيح بينها ونحو ذلك، وللمتقيِّد بمذهب ملكات معرفة المذهب والتخريج على أصوله وفروعه والترجيح فيه ونحو ذلك.

وقولنا: (وتنزيلها على الوقائع)، إشارة إلى الشقِّ الآخر من الفقه، فإنَّ الفقه جانبان: فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وهو ما تقدَّمت الإشارة إلى ملكته، والجانب الآخر: فقه الواقع والقدرة على تنزيل الحكم الشرعيِّ المطابق له^(١)، وهذا يتضمَّن المهارة في تصوُّر الوقائع والتنبُّه إلى القرائن والأحوال المحيطة بها المؤثِّرة في حكمها، والنظر في المآل وسدِّ الذرائع والموازنة بين المصالح والمفاسد ونحو ذلك.

(١) انظر: أعلام الموقعين (٢/ ١٦٥).

شروط اكتساب الملكة الفقهيّة

شروط اكتساب الملكة الفقهية

نيل الملكة الفقهية هو الغاية من الحديث عنها، وذلك لا يتم إلا بمعرفة شروط اكتسابها.

ووسائل نيل الملكة الفقهية كثيرة، وبتتبع ما أرشد إليه العلماء من ذلك نجد تلك الوسائل على اتساعها عائدةً إلى أمور أربعة يمكن تسميتها: شروط اكتساب الملكة، وهي:

- الاستعداد الفطري.
- العناية بالقواعد والكليات.
- الممارسة المباشرة.
- التكرار.

واسم (الشروط) صادق على هذه الأربعة؛ لانطباق معنى الشرط عليها: (ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم)^(١)؛ لأنه لا بُدَّ من كل واحد من هذه الأمور لاكتساب الملكة، فلا تتم الملكة إلا باجتماع هذه الشروط، لكنَّ حصول واحد منها لا تتم به الملكة، بل لا بُدَّ من اجتماعها، وهذه حقيقة الشروط.

(١) الفروق (١/١٧٣)، شرح تنقيح الفصول ص ٨٢.

وسنُفرد لكل واحد من هذه الشروط حديثاً فيما يأتي إن شاء الله، لكن لا بُدَّ قبل الشروع في ذلك من التنبُّه إلى أنَّ العلم هبة من الله تعالى، لا يُنال إلا بفضلِه، والبشر ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والفقه في الدين اصطفاء من الله سبحانه، قال تعالى لكليمه موسى ﷺ: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وإذا كانت الرسالة اصطفاء من الله تعالى، فإن إرثها علماً وعملاً ودعوة إرث من هذا الاصطفاء، والحرص الدؤوب في الطلب غير كافٍ في النجاح ما لم يصحبه توفيق من الله، ف﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وكون الفقه هبة من الله وفضلاً لا يمنع أن يكون لنيله أسباب من جهة العبد، فكثيراً ما أوضح القرآن أنَّ الإيمان والعمل الصالح والتقوى وصلاح النية والإحسان مفاتيح للرزق والبركة والعلم، من ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، أي: علماً تفرِّقون به بين الحقِّ والباطل^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

(١) انظر: أضواء البيان (٢/ ٤١٢).

فالفقه في الدين ليس عملاً ذهنيًا محضًا، كالعَمَلِيَّاتِ الحسابية والهندسية التي يكون الأقرب فيها إلى الإصابة من كان أبرع وأحدّ ذكاءً، ولكنّه منحة من الله تعالى يمنحها الصادقين والمخلصين والمُنيبين إليه؛ فالله جلّ وعلا وصف كتابه المُبين بأنّه:

﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

و﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢] ^(١).

و﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣].

و﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

و﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

فإذا علم العبد أنّ العلم هبة من الله تعالى لا تُنال إلا بفضله، وأنّ لنيله أسبابًا من جهة العبد، فثمرة هذا العلم الرّغبة إلى الوهاب الواسع الرحيم - سبحانه - والاعتماد عليه، واتباع الأسباب المقرّبة من فضله، وذلك بالإخلاص لله في طلب العلم، والتوكّل عليه واستعانته، والتقوى، والعمل بالعلم.

وقد فهم بعض أهل العلم من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ

﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:

٧٧ - ٧٩]، إشارة إلى أنّه لا ينال معاني القرآن ويفهمه كما ينبغي إلا

(١) وانظر: سورة الأعراف، الآية (٥٢).

القلوب الطاهرة، وأن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه مصروفة عنه؛ لأنه إذا كانت الصُّحف التي في أيدي الملائكة لم يمكن الله من مسّها إلا هؤلاء المطهّرين، فكذلك معاني القرآن^(١)، ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿سَاصِرُفٌ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

الشرط الأول: الاستعداد الفطريُّ:

اكتساب أي ملكة أو مهارة يقتضي وجود قابليّة واستعداد لاكتسابها، ولاكتساب ملكة الفقه ثلاثة جوانب من الاستعداد الفطريّ نجدها عند الفقهاء، هي:

- الذكاء الفطريّ الذي يستطيع به الفهم بيسر.
- واعتدال الطّبع ليكون صاحبه وسطاً بين الجفاء والغلوّ.
- والميل والرغبة الدافعة.

أ - الذكاء:

الفقه عمل عقليّ يعتمد الفهم والاستنباط والاستدلال والترجيح، وتلك أعمال لا يقتدر عليها -فضلاً عن أن تكون ملكات له- إلا

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٢)، أعلام الموقعين (٢/ ٣٩٢).

ذهن ذكيٍّ صحيح؛ ولذا صرح الأصوليون بأنَّ من شرط المجتهد أن يكون ذا قريحة^(١)، ذكيَّ الفؤاد جيِّدَ الملاحظة رصينَ الفكر صحيح التصرف، أخا فطنة وذكاء؛ ليصل بذلك إلى معرفة المسكوت عنه من أمارات المنطوق، ويقندر على استنتاج الأحكام من مأخذها^(٢).

ومع تأكيد شأن الذكاء وأثره في اكتساب الملكة فلا بُدَّ من التنبيه على أمرين:

الأول: الاحتراز من الشَّطط في تعظيم شأن الذكاء، بتوهم أنَّ الفقه لا يناله إلا العباقرة وأذكياء العالم كابن عباس والشافعيّ وابن تيمية ونظرائهم، بل الحقُّ أنَّ الفقه رُتِبَ، فمن كان من طلاب العلم أذكى كان أحرى ببلوغ مراتب الفقه العالية، لكن ذا الذكاء المتوسط غير معزول عن الفقه، ولا خارج عن دائرة الصلاحية له، والنظر في مراتب الفقهاء والمفتين من حيث تفاوت رتبهم في الفقه مع اجتماعهم في صفة الفقه وحمل الإرث النبويِّ بُرهان على هذا.

وقد ضرب الله تعالى للقلوب واتساعها لعلم الوحي بتفاوت الأودية في احتمالها لما ينزل من الماء، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

(١) القريحة في الأصل: أول ما يستنبط من البئر، ومنه قولهم: فلان قريحةٌ جيِّدةٌ، يراد استنباط العلم بجودة الطبع. انظر: الصحاح (١/٣٩٦).

(٢) انظر: التقرير والتجوير (٣/٢٩١)، الفكر السامي ص ٧٣٠، الفقيه والمتفقه (٢/٣٣٢-٣٣٣)، أدب القاضي للهاوردي (١/٤٩٢)، المجموع (١/٩٥)، البحر المحيط (٦/١٩٩)، شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع مع حاشية العطار (٢/٤٢١)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص ٣٧٣.

فَسَأَلَتْ أَوْدِيَّةً بِقَدْرِهَا ﴿الرعد: ١٧﴾، قال ابن القيم رحمته الله: «شبه العلم بالماء النازل من السماء، والقلوب في سعتها وضيقها بالأودية: فقلب كبير واسع يسع علماً كثيراً كوادٍ كبير واسع يسع ماءً كثيراً، وقلب صغير ضيق يسع علماً قليلاً كوادٍ صغير ضيق يسع ماءً قليلاً»^(١).

والواقع شاهد بأنه قد نبغ في كثير من الفنون أناس لم يكونوا في أعلى درجات الذكاء، بل كانوا وسطاً في الذكاء، لكنهم أعينوا - إلى ذكائهم - بالجد والصبر، فالطالب الصادق كثيراً ما يسبق من فوقه في الذكاء إذا أعين بالصبر والمداومة على الطلب، ولأنَّ يهب الله تعالى طالب العلم صبراً خيراً له من أن يمنحه ذكاء خارقاً لا صبر معه؛ قال رحمته الله: «ما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»^(٢)، وما أكثر الأذكياء الذي خسروا ذكاءهم وغبنوا فيه!

التنبيه الثاني:

الحذر من الاستعجال في الحكم على طالبٍ بعدم صلاحيته للتفقه، فقد يتعسر التحصيل على الطالب في أول طلبه ولا يكون ذلك لعدم صلاحيته، ولكن لعدم دربته على العلم والحفظ، أو لسوءٍ في طريقة

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، برقم (١٤٦٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، برقم (١٠٥٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

تعلّمه أو تعليمه، ولذا حذر بدر الدين الحلبي المعلّم من الحكم على تلميذه بعدم الصلاحية إلا بعد مُدّة من الاشتغال، «فإن رُئي قد علق بفكره شيءٌ مما أُلقي إليه وتحفظه وفهمه استدلالاً بذلك على قابلية فيه وتهيؤٍ للتعلّم، وإلا عُلِمَ أنّه على الضدّ من ذلك فُصِّرَ عن العلم إلى ما يلائم عقله من الصنائع»^(١)، ورأى حاجي خليفة أن تكون مدّة الامتحان هذه ثلاث سنين^(٢)؛ حذرًا من الاستعجال.

وفيما يأتي شاهدان من سيرة الفقهاء على هذا التثبت:

حكى الحسن بن زياد عن نفسه، قال: كنت أختلف إلى زفر وإلى أبي يوسف في الفقه، وكان أبو يوسف أوسع صدرًا بالتعليم من زفر، فكنت أبدأ بزفر فأسأله عن المسألة التي تشكل عليّ، فيفسّر لها لي فلا أفهمها، فإذا أعيبته قال: ويحك! مالك صناعة؟ مالك ضيعة؟ ما أحسبك تفلح أبدًا!

قال: فأخرج من عنده وقد فترت واغتممت، فأتي أبا يوسف فيفسّر لها لي، فإذا لم أفهم قال لي: ارفق، ثم يقول لي: أنت الساعة مثلك حين بدأت؟ فأقول له: لا، قد وقفت منها على أشياء، وإن كنت لم أستتم ما أريد، فيقول لي: فليس من شيء ينقص إلا يوشك أن يبلغ غايته؛ اصبر فإنّي أرجو أن تبلغ ما تريد^(٣).

(١) التعليم والإرشاد ص ٢٦١.

(٢) كشف الظنون (١/ ٤٩).

(٣) حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي ص ١٩.

القفال المروزي، الفقيه الشافعيّ الكبير^(١)، ابتدأ في طلب العلم كبيراً، وكان قبل ذلك يصنع الأقفال، نقل ياقوت الحموي: أن القفال الشاشيّ صنع قفلاً ومفتاحاً وزنه دانق^(٢) واحداً! فأعجب الناس به جداً وسار ذكره، وبلغ خبره إلى القفال هذا فصنع قفلاً مع مفتاحه وزنه طسُوج^(٣) وأراه الناس فاستحسنوه ولم يشع له ذكر! فقال يوماً لبعض من يأنس إليه: ألا ترى كلّ شيء يفتقر إلى الحظّ؟ عمل الشاشيّ قفلاً وزنه دانق وطنت به البلاد، وعملت أنا قفلاً بمقدار رבעه ما ذكرني أحد! فقال له: إنما الذكر بالعلم لا بالأقفال.

فرغب في العلم واشتغل به وقد بلغ من عمره أربعين سنة، وجاء إلى شيخ من أهل مرو وعرفه رغبته فيما رغب فيه فلقنه أول كتاب المزني، وهو: «هذا كتاب اختصرته»، فرقي إلى سطحه وكرّر عليه هذه الثلاثة ألفاظ من العشاء إلى أن طلع الفجر، فغلبته عينه فنام، ثم انتبه وقد نسيها؛ فضاق صدره وقال: أيش أقول للشيخ؟

وخرج من بيته فقالت له امرأة من جيرانه: يا أبا بكر، لقد أسهرتنا البارحة في قولك هذا كتاب اختصرته، فتلقنها منها وعاد إلى شيخه وأخبره بما كان منه، فقال له: لا يصدّنك هذا عن الاشتغال؛ فإنك إذا

(١) وهو المراد بالقفال في كتب الفقه الشافعية عند الإطلاق، وإن أريد الآخر قيد بالشاشي، أو الكبير. انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٥/٥٣).

(٢) الدانق: سدس الدرهم. انظر: القاموس المحيط ص ٨٨٤.

(٣) الطسُوج، ربع الدانق. انظر: القاموس المحيط ص ١٩٧.

لازمت الحفظ والاشتغال صار لك عادة. فجّد ولازم الاشتغال حتى كان منه ما كان، فعاش ثمانين سنة: أربعين جاهلاً وأربعين عالماً^(١).

تنوّع الذكاء:

كانت النظرة القديمة نحو الذكاء لدى الباحثين في علم النفس تنحصر في قياس الذكاء بما لدى المرء من قدرة عقلية رياضية ولغوية، لكنّ ملاحظة المختصّين عدداً من الظواهر قادتهم إلى إعادة النظر في هذا التصوّر، فقد فشل عدد من الموهوبين في امتحانات الذكاء ثم برزوا بعد ذلك في مجالات كثيرة من مجالات الحياة، كما أنّ كثيراً من الحائزين درجات عالية في تحصيلهم الدراسي أو في اختبارات الذكاء لم يحققوا فيما بعد نجاحاً متميّزاً في حياتهم العملية، وأوضحت البحوث أيضاً أنّ الطلبة مختلفون في عقولهم، وأنهم يتعلّمون ويستذكرون ويفهمون بطرق مختلفة، وذلك يعني أنّهم يتعلّمون تعلّماً أفضل إذا كان التعليم ملائماً لما يملكونه من ذكاء.

وقد أبرز الباحثون النفسيون أنواعاً من الذكاء، منها: الذكاء اللغويّ، والذكاء الرياضي (المنطقي)، والذكاء الاجتماعي، والذكاء الذاتي.

وإذا كنّا بصدد الحديث عن الملكة الفقهية، وكون الذكاء شرطاً لها، وإذا كانت الملكة الفقهية تتضمّن مهارات كثيرة، فيمكن أن

(١) معجم البلدان (١١٦/٥).

نستفيد من نظرية (تعدد الذكاء): أن طالب العلم مؤهل للبراعة في المهارات الفقهية الملائمة لنوع ذكائه، وإيضاحاً لذلك يُقال:

- إن بروز الذكاء الاجتماعي في المتفقه يؤهله للإجادة في الإفتاء والقضاء؛ لفهمه أحوال الناس وطبائعهم، وقدرته على حسن توجيههم وإقناعهم، وإن كان لديه قصور في جوانب أخرى.

وهو أيضاً مؤهل للإجادة في البحث الفقهي في جوانبه المتعلقة بتنزيل الأحكام على الوقائع، وإن كان ذا مستوى متوسط في جوانب البحث الفقهي الأخرى.

وهو أيضاً ذو استعداد جيد للتعليم، فهو صاحب ملكة تمكنه من فهم دوافع المتعلمين وطرق توجيههم ونفعهم.

- وإن بروز الذكاء المنطقي في الفقيه يجعله مؤهلاً للإجادة في أغلب مجالات البحث الفقهي، لتوقفها على أنواع متعددة من الاستدلال والاستنتاج العقلي، وسيكون لصاحب هذا الذكاء من الإجادة ما لا يكون لو أعمل نفسه في غير هذا المجال.

- وبروز الذكاء اللغوي في الفقيه يُشير إلى استعداده لأنشطة فقهية عديدة، منها: الاستدلال المعتمد على الاستنباط من النصوص، والتعليم، والتأليف.

وبمعرفة المرء جوانب القوة في ذكائه يتنبه لمواضع الضعف فيه،

وهذا يرشده إلى فعل ما ينبغي تجاه ذلك الضعف، فيقوده ذلك إلى أعمال المشورة، أو زيادة البحث والتحقيق، أو الإمساك عن الإفتاء في بعض المسائل أو الموضوعات.

والمقصود: أن إقبال المرء على ما يجيد فيه ويحسنه أقرب إلى أن تنمو ملكته نموًّا ملائمًا لطبيعته، وذلك أقرب إلى نجاحه، وخير له من إعماله نفسه فيما لم يُمكن منه، وهذا ما يرشد إليه الشيخ المرعشي بقوله: «ينبغي للمتعلم أن يشتغل بما يوافق طبعه؛ فإنه يمهر فيه إن شاء الله، وعلى المعلم أن يرشده لما يراه صالحًا له، لأنَّ كثيرًا من المتعلمين في بدء أمرهم لا يعلمون ما يصلحون له»^(١).

وما سبق يتوقَّف على معرفة المتفقه بنفسه، ومعرفة المعلم بحال تلميذه، فلا يتمُّ للمتفقه تنمية الملكات الكامنة فيه إلا بمعرفته بحاله، ونوع الذكاء الأغلب عليه، ولا يتمُّ ذلك للمعلم إلا بمعرفة ذلك من حال تلميذه، وللوسائل أحكام المقاصد؛ فمما يجود به التعليم: أن يكون المعلم على معرفة بأحوال تلاميذه، وأن يُمكن التلاميذ من معرفة ذلك من أنفسهم، وبذلك يُمكن أن يتوجَّه المتفقه إلى المجال الأليق به، فيكون ذلك أقرب إلى إدراك ملكته، ومما يتحقَّق به ذلك: أن يكون اختبار نوع الذكاء جزءًا من اختبار الترشيح والتأهيل للمناصب الفقهية كالإفتاء والقضاء والتعليم والبحث وغيرها.

(١) ترتيب العلوم ص ٢٠٠.

هل الذكاء وراثي أو مكتسب؟

يقرّر الأصوليون في تعريفهم العقل أنّ منه ما هو غريزة فطريّة، ومنه ما هو مكتسب من التجربة والتعلّم^(١)، وقد عُيّنت الدراسات المعاصرة في علم الأحياء وعلم النفس كثيرًا بتحديد مدى تأثير العوامل الوراثيّة (الفطريّة) والعوامل البيئيّة (المكتسبة) في درجة الذكاء لدى الإنسان، والموقف الحالي عند كثير من علماء نفس النمو: أنّ الوراثة (العوامل الفطريّة)^(٢) هي صاحبة الأثر الأكبر في هذا الجانب، فالمستوى العقليّ للإنسان يرجع أوّلاً إلى العامل الفطريّ الوراثي، إلا أنّ ذلك لا يلغي أثر العوامل البيئيّة (المكتسبة) ولا يقلّلها، وذلك أنّ العوامل البيئيّة^(٣) هي التي تُخرج الذكاء الفطريّ من دائرة الكمون إلى الظهور، فبمقدار جودة الظروف البيئيّة يرتفع ذكاء الإنسان الظاهر إلى أعلى مستوى تتيحه قدرته الفطريّة، ودون ذلك قد يكون لدى الإنسان ذكاء وراثيّ كبير لكنه يعيش في بيئة غير جيّدة، فيكون ذكاؤه الظاهر ضئيلاً.

(١) انظر: القواطع في أصول الفقه (١/ ١٠٢)، إحياء علوم الدين (١/ ٣١٥)، البحر المحيط (١/ ٨٨)، المسودة (٢/ ٩٨١)، الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ١٣٤.

(٢) المقصود بعامل الوراثة: انتقال الصفات من الآباء والأجداد إلى الأبناء عن طريق المورثات في أثناء تكوين البيضة المخصبة. انظر: سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ص ٥٢.

(٣) يدخل فيها: الحال الصحيّة والنفسية والغذائية للأم في وقت الحمل، التغذية، الأمراض، الوضع الاقتصادي والتعليمي، أسلوب التنشئة الأسرية، الوسط الاجتماعي العام. انظر: علم نفس المراحل العمرية ص ٩٥-١١٨.

أما في حال قلة نصيب الإنسان من الذكاء الوراثي فإن العوامل البيئية لا يمكن أن تتيح له ذكاء زائداً على قدرته الفطرية.

وعلى هذا، فقد يتساوى اثنان في صفة الذكاء الوراثية لكن تختلف ظروفهما البيئية؛ فتظهر هذه الصفة في أحدهما بمستوى مختلف عما هي عليه لدى الآخر.

وخلاصة ذلك أن الوراثة -بإذن الله- هي التي تحدّد الإطار الذي يمكن أن تظهر فيه القدرة العقلية ولا تتجاوزها، والعوامل المكتسبة هي التي تحدّد الشكل الظاهر لهذه الصفة ضمن هذا الإطار^(١).

ولعلّ هذا ما أشار إليه الجويني رحمته الله حينما عدّ (فقه النفس) أحد شروط المفتي قائلاً: «هو رأس مال المجتهد، ولا يتأتى كسبه، فإن جُبل على ذلك فهو المراد، وإلا فلا يتأتى تحصيله بحفظ الكتب»^(٢)، فهي إشارة منه إلى التأثير الأساسي للاستعداد الفطري (الوراثي)، وأنّ (حفظ الكتب) الذي هو (العوامل البيئية) إنّما يجدي عند وجود استعداد فطري.

وفي قول النبي ﷺ: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم

(١) انظر: علم نفس المراحل العمرية ص ١١٩، ١٢٥-١٢٦، التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٩٧-٩٩، سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ص ٣٣-٥٣، المرجع في تربية الموهوبين ص ٧٣-٧٥.

(٢) البرهان ص ١٣٣٢.

في الإسلام إذا فقهوا»^(١)، جمع بين أثر العوامل الوراثية (الناس معادن) والعوامل البيئية (إذا فقهوا)، وأنَّ باجتماعهما تكون الخيرية. وإذا كان تحسين ذكاء الأفراد ورفع مستواهم العقليُّ عن طريق التحكم في العوامل الوراثية أمرًا عسير التحقيق إن لم يكن مستحيلًا، فإنَّ ذلك يمكن أن يتمَّ عن طريق توفير الظروف البيئية والثقافية المناسبة لتنمية الذكاء والقدرات العقلية، وفي هذا الاتجاه ينبغي أن تتَّجه الجهود^(٢)، ومن الإجراءات الممكنة هنا:

- حسن اختيار الزوجة: فهي الأمُّ التي سيرث الأولاد نصف مورثاتهم منها^(٣)، فضلًا عن دورها الأساس في تشكيل معالم بيئة نشأتهم.
- الحالة الصحية والنفسية للأمِّ وقت الحمل والولادة والرضاعة^(٤).
- البيئة المتنوعة والمثيرة للتفكير: فالحرمان من المثيرات الحسية يؤدي إلى انخفاض مستوى الذكاء، خاصة إذا

(١) سبق تحريجه ص ٥٢.

(٢) انظر: سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ص ٤٦.

(٣) انظر: علم نفس المراحل العمرية ص ٨٨.

(٤) انظر: علم نفس المراحل العمرية ص ٩٦-١٠٥، علم نفس النمو ص ١٥٩، الذكاءات المتعددة ص ٧٧.

كان في مرحلة ما قبل المدرسة، وعند أطفال لهم في الأصل استعدادات عقلية عالية؛ وذلك لحاجتهم إلى تلك المثيرات التي تساعدهم في التعليم^(١).

• حسن التربية، ولا سيّما في سنوات الطفولة الأولى: فقد أكدت البحوث التي استقصت تأثيرات البيئة في تطوّر ذكاء الطفل أنّ سنوات الرّوضة مرحلة حاسمة ومهمّة في التطوّر المعرفي، وقد وجدت هذه الدّراسات أنّ الدرجات العالية في اختبارات الذكاء كانت مرتبطة ببيئة الطفل قبل الدّراسة، ويبيّن هذه الدّراسات أنّها ضروريّة للتطوّر الفكريّ.

• التعليم المثير للتفكير: فله أثر كبير في إثارة العقل وتنشيط الذكاء، ومن ذلك: التعليم بحلّ المشكلات، فيرى الخبراء أنّ أفضل طريقة لتنمية قدرة الدماغ على التفكير هي تعريض الإنسان لحلّ المشكلات التي تتحدّى تفكيره، وكلّما كانت المشكلات متنوعة زادت قوّة الدماغ على التفكير، بخلاف التعليم القائم على تقديم المعلومات مكتملةً للطالب، لتكون وظيفته مجرد تلقّيها وحفظها ثم أدائها في الامتحان كما تسلّمها، فهذا التعليم مطفئٌ جذوة

(١) انظر: الذكاء المتعدد في غرفة الصف النظرية والتطبيق ص ٢٣، سيكولوجية الفروق الفردية في الذكاء ص ٤٦.

الذكاء مُخْمَلُ الذَّهْنِ^(١).

- الحال النفسية الجيدة: فللاعتدال النفسي لدى المتعلم أثر كبير في جودة التفكير، فتلقّي المتعلم تعاملاً جيّداً واحتراماً وتعاوناً بين الطلاب وتقديراً من المعلم والأهل، كلُّ ذلك ينشّط الدماغ ليفرز موادَّ كيميائية إيجابية ذات أثر مهدئ وضابط للأعصاب ويبعث الراحة والرّضا واحترام النفس والحيويّة والنشاط، بخلاف حال الشعور بالسخط والظلم والقسوة والتهديد والإهانة، فإنَّ ذلك يُخلُّ بإنتاج كيمائيات الدماغ؛ وذلك يورث يأساً وإحباطاً وسلوكاً عدوانياً وإعراضاً عن التعلّم^(٢).

ما العمل عند نقص الذكاء الفطريّ؟

هنا نجد للعلماء موقفين إجمالاً:

الموقف الأول: حثّ الطالب على الاستمرار في الطلب، وإعانتته على ذلك، والصبر على تفهيمه وتعليمه.

(١) انظر: مهارات التفكير وسرعة البديهة وحقائب تدريبية ص ٤٤.
ومما يُذكر هنا: ضرر الجلوس الطويل أمام التلفاز، فهو من أسباب خول التفكير واعتياد السلبية. انظر: المرجع السابق ص ٤٨.
(٢) انظر: مهارات التفكير وسرعة البديهة وحقائب تدريبية ص ٣٧-٣٨، ٤٧-٤٨، ٥١، مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٦.

والموقف الثاني: إرشاد الطالب إلى أن يأخذ من العلم ما يتعين عليه مما لا يسعه جهله، ثم الانصراف إلى ما يلائمه من الأعمال الصالحة الأخرى، سوى طلب العلم.

ولكلٍّ من هذين الموقفين موضع، والحكمة في اختيار الموقف من أخصّ صفات المعلم الربّانيّ.

أ) حثُّ الطالب على الاستمرار في الطلب وإعانتته على ذلك:

ويكون ذلك عندما لا يكون نقص الذكاء كبيراً، وقد يجبر ذلك النقص أيضاً حادثة في سنّ الطالب، وصدق في همته، فهنا ينبغي إعانة الطالب واحتساب الأجر في تعليمه والصبر عليه؛ وقد ذكروا من أدب المعلم: أن يُفهم كلَّ واحد بحسب فهمه وحفظه، فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهماً محققاً، ويوضح العبارة لغيره، ويكرّرها لمن لا يحفظها إلا بتكرار^(١)، وأن يعطي كلَّ طالب من العلم ما يليق بعقله وعلمه^(٢)، وهذه المراعاة للفروق بين الطلاب لا تكون ما لم يكن المعلم ذا خبرة بطلابه، قريباً منهم، يختبر أفهامهم وعلومهم؛

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ٢١٢-٢١٣)، المجموع (١/ ٧٥)، تذكرة السامع والمتكلم ص ٩٠.

(٢) في هذا يقول الغزالي: من وظائف المعلم: «أن يقتصر بالتعليم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخط عليه عقله؛ اقتداء في ذلك بسيد البشر ﷺ... فليبحث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها... فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد، هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه؟».

ليتمكّن من إعطاء كلّ منهم ما يليق به، وتوجيه كلّ واحد منهم إلى ما يصلح له.

والفقه رُتب، القصور عن عليها لا يُخرج الطالب من جميعها، فالمعلّم الناصح يحاول تبليغ تلميذه أرفع ما هو مؤهّل له من مراتب العلم، فمن لم يكن مستعدّاً لمرتبة الاستنباط واستخراج القواعد قد يكون قادراً - مع بذل الجهد - على مرتبة الاجتهاد في تنزيل الأحكام على الوقائع، وهي إحدى مراتب الفقه، ولا غنى بالناس عنها، كما قد يكون قادراً على حفظ العلم وروايته ونقله وإن لم يكن ذا استنباط منه، فيكون بذلك مشاركاً في حفظ الدين ونقله، مبلغاً عن النبيّ ﷺ، وكفى بها فضيلة، وإلى ذلك يشير الإرشاد النبويّ الكريم: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيّة قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، برقم (٧٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، برقم (٢٢٨٢)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ومن الشواهد على هذا من سيرة الفقهاء: ما جاء في سيرة الربيع بين سليمان المرادي رحمته الله أحد الخاصة من أصحاب الشافعي، فقد ذكروا أنه لم يكن في المرتبة العليا من الفهم، ولكنه كان شديد العناية بطلب العلم، كما كان شيخه الشافعي رحمته الله مقدراً حرصه معتنياً به، حتى قال له يوماً: يا ربيع، لو أمكنني أن أطعمك العلم لأطعمتك! وكرّر الشافعي عليه مسألة واحدة أربعين مرة فلم يفهم! وقام من المجلس حياءً فدعاه الشافعي في خلوة وكرّر عليه حتى فهم ^(١).

وقد أثمر هذا الحرص من الربيع وتلك العناية من الشافعي، أن كان الربيع رحمته الله راوية كتب الشافعي الأوثق المقدم عند اختلاف الرواة عن الشافعي، متقدماً في ذلك على من هو أفقه منه من أصحاب الشافعي ^(٢).

وقد يكون من النصح للمتعلّم أن يصرفه من طلب علم إلى طلب علم آخر، يقول بدر الدين الحلبي: «ليس كل نفس تقبل العلم، ولا كل نفس تصلح لتعلم علم تصلح لتعلم علم آخر، فربما كان لها من الاستعداد في علم ما ليس لها مثله في علم آخر، وعلى المعلم العاقل أن يتعهّد تلامذته؛ فإن رأى من أحد منهم عدم تهيؤ لتحصيل علم صرفه إلى علم آخر، ولا يتركه هملاً يصرف نقد عمره فيما لا ينال» ^(٣).

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ١٣٤).

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ١٣١-١٣٢).

(٣) التعليم والإرشاد ص ٢٣٨.

والشاطبي رحمه الله بعد أن قرّر أن فروض الكفايات إنما تكون فروضاً في حقّ القادرين عليها لا على كلّ فرد من الأمة، وأنّ الفرض على كلّ واحد من القادرين إنما يكون في حدود قدرته لا فيما يزيد عليها، قال: «ثم إن وقف هنالك^(١) فحسن، وإن طلب الأخذ في غيره أو طلب به فعل معه فيه ما فعل فيما قبله، وهكذا إلى أن ينتهي...»

وهكذا الترتيب فيمن ظهر عليه وصف الإقدام والشجاعة وتدبير الأمور، فيمال به نحو ذلك، ويعلم آدابه المشتركة، ثم يصار به إلى ما هو الأولى فالأولى من صنائع التدبير: كالعرفاة، أو النقابة، أو الجندیّة، أو الهداية، أو الإمامة، أو غير ذلك مما يليق به، وما ظهر له فيه نجابة ونهوض، وبذلك يتربّى لكلّ فعل هو فرض كفاية قوم... فحيث وقف السائر وعجز عن السير فقد وقف في مرتبة محتاج إليها في الجملة، وإن كان به قوة زاد في السير إلى أن يصل إلى أقصى الغايات في المفروضات الكفائية، وفي التي يندر من يصل إليها، كالاتجاه في الشريعة والإمارة؛ فبذلك تستقيم أحوال الدنيا وأعمال الآخرة.

فأنت ترى أن الترقّي في طلب الكفاية ليس على ترتيب واحد، ولا هو على كلّ بإطلاق، ولا على بعض بإطلاق... بل لا يصحّ أن يُنظر فيه نظراً واحداً حتى يفصل بنحو من هذا التفصيل، ويوزّع في أهل الإسلام بمثل هذا التوزيع^(٢).

(١) أي على القدر الذي يستطيعه من التعلم.

(٢) الموافقات (١/ ١٢٣-١٢٤).

ب) إرشاد الطالب إلى أن يأخذ من العلم ما يتعين عليه ثم الانصراف إلى ما يلائمه من الأعمال الصالحة الأخرى:

وذلك إذا تعمّر على الطالب مطلبه، وظهر عدم استعداده للاختصاص بطلب الفقه، فالصواب هنا أن يأخذ من العلم ما يتعين عليه معرفته، ثم يصرف عنايته إلى أفضل ما يقدر عليه من العمل الصالح، ولا يحسن الإلحاح على من كان كذلك بطلب الفقه.

وذلك لأن الله تعالى قسّم الأرزاق والقوى بين عباده، وابتلاهم فيما آتاهم، ولم يكلفهم ما لا يطيقونه، فقال تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

يقول الشاطبي - رحمه الله تعالى - مقررًا هذا المعنى: «طلب الكفاية يقول العلماء بالأصول: إنه متوجّه على الجميع، لكن إذا قام به بعضهم سقط عن الباقي، وما قالوه صحيح من جهة كُليّ الطلب، وأما من جهة جزئية ففيه تفصيل.. ولكن الضابط للجمله من ذلك أنّ الطلب وارد على بعض، ولا على بعض كيف كان، ولكن على من فيه أهلية القيام بذلك الفعل المطلوب، لا على الجميع عمومًا، والدليل على ذلك أمور...

وعلى هذا المهيع جرى العلماء في تقرير كثير من فروض الكفايات، فقد جاء عن مالك أنه سئل عن طلب العلم: أفرض هو؟

فقال: أما على كلّ الناس؛ فلا. يعني به الزائد على الفرض العينيّ، وقال أيضاً: أما من كان فيه موضع للإمامة؛ فالاجتهاد في طلب العلم عليه واجب...

ولا بُدّ من بيان بعض تفاصيل هذه الجملة ليظهر وجهها وتبيين صحتها بحول الله.

وذلك أنّ الله -عزّ وجلّ- خلق الخلق غير عالين بوجوه مصالحهم... ثمّ وضع فيهم العلم بذلك على التدرّج والتربية.. فطلب الناس بالتعلّم والتعليم لجميع ما يُستجلب به المصالح وكلّ ما تُدرأ به المفاسد؛ إنهاضاً لما جُبل فيهم من تلك الغرائز الفطريّة والمطالب الإلهاميّة؛ لأنّ ذلك كالأصل للقيام بتفاصيل المصالح.. وفي أثناء العناية بذلك يقوى في كلّ واحد من الخلق ما فُطر عليه وما أُلهم له من تفاصيل الأحوال والأعمال، فيظهر فيه وعليه، ويزر فيه على أقرانه ممن لم يُهيأ تلك التهيئة، فلا يأتي زمان التعقّل إلا وقد نجم على ظاهره ما فُطر عليه في أوليّته، فترى واحداً قد تهيأ لطلب العلم، وآخر لطلب الرّئاسة، وآخر للتصنّع ببعض المهن المحتاج إليها، وآخر للصّراع والنّطاح، إلى سائر الأمور.. فعند ذلك يتنهض الطلب على كلّ مكلف في نفسه من تلك المطلوبات بما هو ناهض فيه، ويتعين على الناظرين فيهم الالتفات إلى تلك الجهات فيراعونهم بحسبها ويراعونها إلى أن تخرج في أيديهم على الصراط المستقيم،

ويعينونهم على القيام بها، ويحرضونهم على الدوام فيها حتى يبرز كلُّ واحد فيما غلب عليه ومال إليه من تلك الخطط، ثم يخلى بينهم وبين أهلها، فيعاملونهم بما يليق بهم ليكونوا من أهلها، إذا صارت لهم كالأوصاف الفطرية، والمدرجات الضرورية؛ فعند ذلك يحصل الانتفاع، وتظهر نتيجة تلك التربية»^(١).

ويعدُّ المرعشيُّ من التدبير الرديء في التعليم: «سلوك من لم يرزقه الله تعالى حدةً الذهن مسالك الأذكياء، فكم من طالب لا يقدر إلا على تحصيل جليّات العقائد والفقه يشتغل بالنسخ المغلقة والفنون الدقيقة، فيدع السعي فيما يمكن له تحصيله، ويصرف أيامه في الوثوب إلى ما لا تصل إليه يده؛ فيُحرم عن جميع المطالب العلمية، ويكون في النهاية كأنه بدأ أوّل مرّة!

وهذا الضلال ناشئ من استنكاف البليد عن ترك السلوك إلى مسالك الأذكياء، أو من جهله بمرتبة نفسه... فيجب على العالم المدرس أن يمتحن استعداد الطالب، فيُرشده إلى ما يساعده استعداده، ويمنعه عما لا تصل إليه يده... فلو أنّ ذلك القاصر اشتغل في أيام تحصيله بما تيسر له من العلوم النافعة لحصل له سعادة الدنيا والآخرة»^(٢).

(١) الموافقات (١/١١٩-١٢٢).

(٢) ترتيب العلوم ص ١٩٦، وانظر: الإحكام شرح أصول الأحكام (٢/١١٧)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/٤٩).

وفي هذه المراجعة المتّقمة مع الفطرة من التكامل بين المسلمين وسدّ الحاجات كافّة ما لا يكون لو اجتمع الناس كلّهم على باب واحد من أبواب الخير والدين، ولو كان ذلك الباب باب العلم، بل وتنوّع العبادات في الشريعة وتعدّد أبواب الجنة فيه إشارة إلى اعتبار تنوّع قدرات الناس وميولهم.

ومن قواعد الفقه النافعة هنا: أنّ أفضل الأعمال أمر يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فالعمل وإن كان في نفسه فاضلاً -كطلب العلم- يكون مفضولاً بالنسبة إلى أشخاص وأحوال، فالأفضليّة المطلقة لا تستلزم الأفضليّة المقيدة^(١).

ولهذا شواهد كثيرة في سُنّة النبيّ المعلّم المربي صلوات الله وسلامه عليه، إذ كان يُسأل كثيراً عن أفضل الأعمال، وكان جوابه يختلف، ولم يكن ذلك اختلاف تناقض، ولكنه لاختلاف أحوال السائلين^(٢)، وكان ﷺ يولّي كلّ رجل من أصحابه من العمل ما يصلح له، فمنهم من يولّي القضاء، ومنهم من يولّي إمارة الجيش أو إمارة ناحية، ومنهم من يحذّره من ذلك، ومنهم من يشي عليه بالقراءة، أو بالفقه، أو يدعو له بذلك.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٩/١١٩، ٢٢/٣٤٨، ٢٤/١٩٨)، الموافقات (٤/٥١).

(٢) انظر طرفاً من هذه الأحاديث في: الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم ص ٨٦-٩٢.

ب - الطبيعة المعتدلة:

لا شك في أنَّ الناس مختلفون في طبائعهم: قوَّة وضعفاً، وليناً وقسوةً، وأناةً وعجلةً، وجراًةً وجبناً، واستقلالاً وتبعيَّةً، ورزانه وخفَّةً... ومواقفهم في هذه الصِّفات متفاوتة بين طرفي الإفراط والتفريط، ولطبيعة كلِّ إنسان أثر كبير في سلوكه واختياره وتصرفه.

ولا شك أيضاً في أنَّ دين الله تعالى قائم على العدل، فالعدل هو قاعدة قواعد الشريعة، وجماع أحكامها ونظام عقدها، وما تفاصيل أحكام الفقه إلا مظهر لعدل الشريعة ووسطيَّتها.

ونتيجة هاتين المقدّمتين أنَّ أقرب الناس إلى الفقه أعدلهم طبعاً وأوسطهم رأياً.

فالفقيه - وإن كان متبّعاً للشرع محكماً له - بشر لا خروج له عن طبيعته التي جُبل عليها، فلا بُدَّ من أن يكون لها أثر في اختياره ورأيه؛ «فكما يحتاج الاجتهاد إلى استعداد عقليٍّ أساسه الذكاء فإنه يحتاج أيضاً إلى خَلْقِيَّةٍ نفسِيَّةٍ سويَّةٍ، ليست ذات استعداد للجنوح إلى الشذوذ والتطرُّف والغلوّ والإغراب.

وقد يظنُّ المتصدي للاجتهاد أنَّ هذه النفسِيَّة السويَّة هي فرع من خلفيَّة التقوى، وأنَّ عزمةً منه تكفي لتكوينها، ولكن الأمر في

الحقيقة أبعد، وهناك جوانب خفيّة من تأثير الأساليب وطرق التلقّي والبحث في تكوين نفسيّة المجتهد دون أن يدري أو يفطن لها^(١)؛ ولذا كان اعتدال الطبع أساساً لبناء الملّكة الفقهيّة.

وقد قرّر الفقهاء أنّ من صفات الإمام ألا يكون جباناً فيعتدى عليه وعلى المسلمين، ولا يكون غضوباً فيسرع في الانتقام ويتجاوز الحد^(٢)، وأن يكون القاضي قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف^(٣)، وهي إشارة منهم إلى مدى حاجة الفقيه إلى الاعتدال النفسيّ، وذلك يتضمّن الإقرار بأثر الصفات الشخصية في الرأي والتصرّف.

وبهذا الاعتدال يكون الفقيه وسطاً بين الأطراف المذمومة، فيكون معتدلاً في الاستدلال بين طرف الإفراط في رعاية الألفاظ والتمسك بظاهرها، وطرف اجتهاد الرأي والأخذ بالقياس والاستحسان والتقصّر في معرفة النصوص والاستدلال بها.

ووسطاً في الفتوى بين طرفي التشديد الغالي والترخّص الجافي.

ووسطاً بين المغالاة في التقليد والتعصّب للمذهب، وطرف إهدار فقه العلماء والجرأة على الاجتهاد بلا تأهّل.

(١) أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي (١/١٣٧).

(٢) انظر: سراج الملوك ص ٥٧، تسهيل النظر وتعجيل الظفر ص ٢٣٩، غياث الأمم ص ٢٦٤، التبر المسبوك في نصيحة الملوك ص ٦٧.

(٣) انظر: الذخيرة (١٠/١٩)، معالم القرية في طلب الحسبة ص ٢٠٤، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام ص ٨٩، المغني (١٤/١٧).

ويمكن الإشارة هنا إلى نماذج من أثر الطبيعة الشخصية على السلوك الفقهي من خلال عرض بعض صور انحراف الطبيعة، وربطها بما يمكن أن تؤدي إليه من انحراف فقهي، فمن صور اعتلال الشخصية: الشخصية المرتابة (الإفراط في سوء الظن والشك)، والشخصية الساذجة (الإفراط في حسن الظن)، والإفراط في الغلظة، والإفراط في الرحمة، وتضخم الضمير (الإفراط في النفرة من الخطأ واستشناعه وشدة لوم النفس)، والشخصية المستسلمة، والمبالغة في الحرص والدقة والانضباط، والتفكير الحدي (كل شيء أو لا شيء)^(١):

الشخصية	
• تغليب جانب الاحتياط والمنع في المسائل الاجتهادية المترددة بين التحريم والإباحة. • المبالغة في سدّ الذرائع. • ترجيح جانب درء المفسد على جلب المصالح عند تراحمهما. • الغلظة على المخالف وسوء الظن فيه. • العناد والتعصب للرأي. • المبالغة والشدة في تقدير العقوبات التعزيرية.	الشخصية المرتابة و المفرطة في الغلظة

(١) انظر: ما تحت الأقنعة ص ١٨٢-٣٣٦، سيكولوجيا الشخصية ص ٦٥.

• الاغترار بخداع المستفتين. • إهمال قاعدة سدّ الذرائع، لا ترخصاً وتفلاً، ولكن لغلبة حسن الظنّ في الناس وعدم توقع المآلات السيئة.	الشخصية الساذجة
• التقصير في بيان الحقّ والردّ على المنكرات.	الإفراط في الرحمة
• تغليب جانب الاحتياط والمنع في المسائل الاجتهادية المترددة بين التحريم والإباحة. • اختلال الموازنة في مسائل تعارض المصالح والمفاسد بالميل إلى جانب درء المفسدة وتغليبه مطلقاً.	تضخّم الضمير
• المداهنة والتقصير في بيان الحقّ والسكوت عن إنكار المنكر.	الشخصية المستسلمة
• إخضاع الآخرين للرأي. • الحدة في الخلاف. • العجلة في تنفيذ الرأي. • الاستغراق في التفاصيل.	المبالغة في الحرص والدقة والانضباط
• الميل إلى أحد الطرفين في الأحكام، وغياب الأحكام المتوسطة والتفصيلية.	التفكير الحدي

والسؤال المهمُّ هنا:

ماذا يجب على المتفقه حيال أخلاقه المائلة عن الاعتدال؟

إنَّ ما قيل سابقاً في الذكاء: هل هو وراثي أو مكتسب؟ يقال في الطبيعة، فقد دلت الأدلة المتعددة على أنَّ في الصفات الإنسانيَّة قدرًا قابلاً للتغيير، متأثراً بعوامل الإصلاح والإفساد، وأن فيها إلى ذلك قدرًا ثابتاً غير قابل للتغيير، عميق الجذور في تكوين النَّفس، يتعذر تحويله أو يتعسّر.

وإذا كان كذلك فإنَّ خطاب الشرع بتهذيب الأخلاق جارٍ وفق القاعدة الشرعيَّة الكبرى الشاملة لجميع الأوامر الشرعيَّة، وهي التي أوضحها القرآن في قول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فمسؤولية الإنسان تنحصر في نطاق ما يدخل في وسعه وما يستطيعه من عمل، ونسبة المسؤولية تتناسب طردياً وعكساً مع مقدار الاستطاعة، أما ما هو خارج عن وُسع الإنسان واستطاعته فليس عليه مسؤولية نحوه.

وعلى هذا الأساس يُفهم الأمر بإصلاح الخلق، وعلى هذا يتوجّه الأمر إلى المتفقه بتهذيب نفسه وتقويم خلقه، فما كان من الطَّبائع الفطريَّة قابلاً للتعديل ولو في حدود نسب جزئيَّة لدخوله تحت سلطان إرادة الإنسان وقدرته كان خاضعاً للمسؤوليَّة وداخلاً في

إطارها تجاه التكاليف الربائية، وما لم يكن قابلاً للتعديل لخروجه عن سلطان إرادة الإنسان وقدرته فهو غير داخل في الأمر بتحسين الخلق^(١)، ولكن ذلك لا يعني الاستسلام لأسباب الانحراف والجور، بل إنَّ هناك وسائل وطرقاً أرشد إليها الشارع الحكيم تقي الفقيه والمجتهد من آثارها، كمجاهدة النفس على الاستقامة وإن خالف ذلك طبيعة النفس المنحرفة، وكالمشاورة، ووضع النفس في الموضع الذي تصلح له دون ما لا تصلح له.

ج - الرغبة في اكتساب الملكة الفقهية:

لقد خلق الله تعالى الخلق وقسّم بينهم أرزاقهم وأخلاقهم وقواهم، وتنوّع رغبات الناس وميولهم نحو العلوم إحدى صور هذه القسمة الربائية، وفي هذه القسمة من الحكمة تكميل الناس بعضهم بعضاً، وتعاونهم على تحصيل المطالب التي لا بُدَّ لقيام حياتهم منها، وذلك لا يكون لو اتّفقت رغباتهم، وإنَّ إقبال المرء على ما يجد نفسه مائلة إليه من العلم من خير ما يعينه على إتقانه والصبر على نصّب طريقه، ف«النفس إذا اشتتت الشيء كانت أسمح في طلبه، وأنشط لالتماسه، وهي عند الشهوة أقبل للمعاني، وإذا كانت كذلك لم تدّخر من قواها ولم تجبس من مكنونها شيئاً، وآثرت كدَّ النظر على راحة الترك، ولذلك قيل: يجب على طالب العلم أن يبدأ منه بالمهمّ،

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها (١/ ١٩١).

وأن يختار من صنوفه ما هو أنشط له، وطبعه به أعنى؛ فإن القبول على قدر النشاط، والبلوغ على قدر العناية^(١).

كما أن إكراه النفس على ما لا ترغب فيه يجمع عليها عتاً وقلة عائدة؛ ف«القلب إذا أكره عمي»^(٢)؛ ولذا راعى الفقهاء جانب الرغبة والميل النفسي في التوجه إلى طلب العلم أصلاً، وفي اختيار العلم الذي يختص به الإنسان منه، قال ابن حزم رحمته الله: «مَنْ مَالَ بطبعه إلى علم ما وإن كان أدنى من غيره فلا يشغلها بسواه؛ فيكون كخارس النارجيل بالأندلس وكخارس الزيتون بالهند، وكل ذلك لا ينبغي!»^(٣)، وعدّ الشيخ زكريا الأنصاري من شروط التعلُّم والتعليم: «أن يقصد العلم الذي يقبله طبعه؛ إذ ليس كلُّ أحد يصلح لتعلُّم العلوم، ولا كلُّ من يصلح لتعلُّمها يصلح لجمعها، بل كلُّ ميسر لما خُلِقَ له»^(٤).

وهذا ما يقرّره علم النفس التربوي، حيث يعدّ (الدافعية) شرطاً أساسياً لتحقيق الهدف من عملية التعلُّم^(٥)، والدافع: حالة داخلية في

(١) الحث على طلب العلم ص ٥٣.

(٢) عزاه في كنز العمال إلى ابن مسعود، في كتاب الوسوسة، للأذري (١/ ٣٩٨).

(٣) الأخلاق والسير ص ٨٩.

(٤) اللؤلؤ النظيم في روم التعلُّم والتعليم ص ٥، وانظر: التعليم والإرشاد ص ٢٣٩، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٤٨).

(٥) انظر: علم النفس التربوي لفؤاد أبو حطب وآمال صادق ص ٤٣٣، سيكولوجية المهارات ص ٩٥، علم النفس التربوي الأسس النظرية والتطبيقات العملية ص ٧٠، التعليم والتعلُّم وعلم النفس التربوي ص ٣١٢، تعليم التفكير ومهاراته ص ٢٨٠.

الكائن الحيّ تُوَدِّي إلى استثارة السلوك واستمراره وتنظيمه وتوجيهه نحو هدف معيّن^(١).

لكن هذا يُلقِي سؤالا هو:

ما موقف المسلم الذي عرف فضل العلم والفقه، لكنه لا يجد في نفسه دافعا قويا للطلب؟

يمكن إجمال الجواب عن هذا في موقفين مرتبين:

أولهما: ترغيب النفس وتشويقها وإثارة دوافعها.

والآخر: الموازنة بين مصلحة مراعاة حال النفس وإقبالها ومصلحة حمل العلم.

فأما ترغيب النفس وإثارة دوافعها فلأنَّ فَقْدَ الرَّغْبَةِ الدافعة إلى طلب العلم ربما لا يكون لعدمها، بل لغياب المثير والمُنْبَه لها، فإذا وجد ذلك المثير انطلقت الدوافع الكامنة وكان النجاح والتحصيل، فالأصل في الدافع أن يكون كامناً غير مشعور به حتى يجد من الشعور ما يُشِطُّه ويُطلِّقه، فالمنبه والمثير - داخلياً كان أو خارجياً - هو ما يحيل الدافع من حالة الكمون إلى حالة النشاط^(٢).

(١) علم النفس التربوي ص ٤٣٢.

وانظر تعريفات أخرى في: سيكولوجية المهارات ص ٩٥، التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص ٣٠٣، ما تحت الأقنعة ص ٢٥.

(٢) انظر: سيكولوجية المهارات ص ٩٥-٩٦.

ولإثارة الدوافع الكامنة جاء الكتاب والسنة بأنواع من المرغبات في الإيمان وعمل الخير والبرِّ عمومًا، وفي طلب العلم خصوصًا، واعتنى العلماء -رحمهم الله- بجمع ما ورد في نصوص الوحي من ذلك، واعتنوا بالترغيب في العلم بطرق متنوّعة، تناسب تعدّد الدوافع النفسيّة وتنوّعها.

فمن الدوافع المثيرة للرجبة في طلب العلم: الرغبة في رضا الله تعالى بامتثال أمره بالعلم، والرغبة في نيل ثوابه العاجل والآجل فيه، وذوق لذّة العلم وحلاوته، إما بمباشرة هذه اللذّة، أو بالنظر في حال العلماء والتذاذهم بالعلم، وإدراك منافع العلم العاجلة والآجلة، ومعرفة شؤم الجهل وسوء عاقبته، وعلوّ الهمة وعزّة النفس والأنفة من ذلّ الجهل.

فإذا لم يجد المرء من نفسه الانبعاث والنشاط في طلب العلم بعد محاولة إثارة دوافع النفس وإيقاظ عزميتها، فهل يقعد عن الطلب، وفي ذلك فوات فضيلة العلم العظيمة، أم يمضي في الطلب على كره من نفسه؟

هذه صورة من صور تزاحم المصالح والمفاسد، والقاعدة العامّة في ذلك: ترجيح أعظم الطرفين، مصلحة كان أو مفسدة؛ وعلى كلّ حالٍ ينبغي أن يجتهد المسلم في طلب غاية ما تسمح به نفسه من العلم، مع مداومة الأخذ بأسباب النشاط والرغبة في العلم.

الشرط الثاني: العناية بالقواعد والكُلِّيَّات:

العناية بضبط قواعد العلم وكُلِّيَّاته من أكبر أسس اكتساب الملَكة، وأعني بالقواعد والكُلِّيَّات: الأحكام الكُلِّيَّة الجامعة لفروع الفقه، ويمكن تصنيفها أصنافاً أربعة، هي: نصوص الوحي، وأصول الفقه، والقواعد والضوابط الفقهية، ومقاصد الشريعة.

فبالعناية بالقواعد والكُلِّيَّات إدراكُ العلم ييسر وسهولة؛ لأنَّ القواعد جامعة لأشتات الفروع؛ فالعناية بها ضبط لها، وراحة من العناء في حفظ وتتبع الجزئيات التي لا تنقضي، وقد قال الشعبي رحمته الله: «العلم أكثر من أن يُحصى؛ فخذ من كلِّ شيء أحسنه»^(١)، وأحسن العلم أصوله الحاوية لفروعه، ف«ضبط الأمور المنتشرة المتعددة في القوانين المتحدة هو أوعى لحفظها وأدعى لضبطها»^(٢)، و«من ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكُلِّيَّات، واتَّحد عنده ما تناقض عند غيره وتناسب، وأجاب الشاسع البعيد وتقارب، وحصل طلبته في أقرب الأزمان»^(٣)؛ لذا كان «الوجه لكلِّ مُتصدِّ للإقلال»^(٤) بأعباء الشريعة: أن يجعل الإحاطة بالأصول سوقه الآكد، وينصَّ مسائل الفقه عليها نصَّ من يحاول بإيرادها

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/١٠٦).

(٢) المشثور في القواعد (١/٦٥).

(٣) الفروق (١/٦٢).

(٤) الإقلال بأعباء الشريعة: النهوض بها. انظر: القاموس المحيط (قلل) ص ١٠٤٩.

تهذيب الأصول، ولا ينزف حمام الذهن في وضع الوقائع، مع العلم بأنها لا تنحصر مع الذهول عن الأصول»^(١).

وبالعلم بالقواعد والكليات أيضاً تصوّر العلم تصوّراً صحيحاً، بانبناء الفروع على أصولها وأتّضح مأخذها، «فإنّ المسائل الفرعية على اتّساعها وبُعد غاياتها لها أصول معلومة، وأوضاع منظومة، ومن لم يعرف أصولها لم يُحِط بها علماً»^(٢)، ومن عرف الفروع منبّئة عن أصولها فما عرفها حقّ معرفتها، «فكلُّ فقه لم يخرج على القواعد فليس بشيء»^(٣)، وبصحّة التصوّر أيضاً يؤمّن الخطأ في نقل الأقوال^(٤)، وتُعرف أسباب اختلاف العلماء.

وبه أيضاً يكون الاطراد في الأحكام، والسلامة في التناقض والتخبُّط الناشئ من النظر الجزئيّ في الفروع، ف«من جعل يُخرِّج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية تناقضت عليه الفروع واختلفت، وتزلزلت خواطره فيها واضطربت، وضاعت نفسه لذلك وقنطت»^(٥)؛ «فلا بُدّ أن يكون مع الإنسان أصول كُلية يرد إليها الجزئيات؛ ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا فيبقى في كذب وجهل

(١) البحر المحيط (١٢ / ١) نقلاً عن أبي المعالي الجويني.

(٢) تخريج الفروع على الأصول ص ٣٤.

(٣) الذخيرة (٥٥ / ١).

(٤) يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «نقل الفقه إن لم يعرف الناقل مأخذ الفقيه وإلا فقد

يقع فيه الغلط كثيراً». اقتضاء الصراط المستقيم (٥٤١ / ٢).

(٥) الفروق (٦٢ / ١).

في الجزئيات، وجهل وظلم في الكلّيات؛ فيتولّد منه فساد عظيم»^(١)، ولذا يقول الشاطبي رحمه الله: «كلّ من تحقّق بأصول الشريعة فأدلّتها عنده لا تكاد تتعارض، كما أنّ كلّ من حقّق مناط المسائل فلا يكاد يقف في متشابه؛ لأنّ الشريعة لا تعارض فيها البتّة، فالمتحقّق بها متحقّق بما في نفس الأمر؛ فيلزم ألا يكون عنده تعارض»^(٢).

وبه أيضاً معرفة أسرار الشريعة وحكمها ومقاصدها؛ لما تتضمنه القواعد من التعليل.

ومعرفة حكم ما يحدث من الفروع؛ لاشتغال القواعد على مناط الأحكام، بخلاف الاجتهاد في حفظ الفروع المسطورة بلا علم بما أخذها، فإنّ صاحب ذلك لا يستطيع معرفة حكم الحادث مما ليس مسطوراً في الكتب، فيغلط إذا وردت عليه حوادث غير منصوص على حكمها في الكتب^(٣).

وبكلّ ما سبق يكون لدى الفقيه بصيرة وطمأنينة وثبات في حكمه، وأمن من التزلزل والريب، وهذا هو الرّسوخ في العلم، المعبر عنه بالملّة.

(١) منهاج السنة النبوية (٨٣/٥).

(٢) الموافقات (١٧٤/٤).

(٣) يصف بدر الدين الحلبي حال هؤلاء بقوله: «إذا استفتيت اليوم عشرة من الفقهاء في حادثة شرعية ليست من مسائل المتون التي هي من فتاوى الأئمة وتدوينهم أجابك كلّ واحد من العشرة بجواب غير جواب الآخر، وربما ذكر لك كلّ واحد منهم نصّاً من الكتاب الذي اعتمد عليه، وأفتاك بما رأى فيه». التعليم والإرشاد ص ٤١.

ولعظيم شأن العلم بالقواعد رأى ابن خلدون «أنَّ الحذق في العلم والتفنُّن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف على مسائله، واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفنِّ المتناول حاصلًا»^(١).

ويقول الشاطبي رحمه الله: «من شروطهم في العالم بأي علم...: أن يكون عارفًا بأصوله وما ينبني عليه ذلك العلم، قادرًا على التعبير عن مقصوده فيه، عارفًا بما يلزم عنه، قائمًا على دفع الشبه الواردة عليه فيه»^(٢).

ويعيب ابن رشد فريقًا من طلاب الفقه ظنوا أنَّ الفقه في كثرة الحفظ للمسائل، منبِّها إياهم على أنَّ الفقه في معرفة الأصول والقواعد، فيقول: «بهذه الرتبة يسمَّى فقيهاً، لا بحفظ مسائل الفقه ولو بلغت في العدد أقصى ما يمكن أن يحفظه إنسان، كما نجد متفقهة زماننا يظنون أنَّ الأفقه هو الذي حفظ مسائل أكثر، وهؤلاء عُرض لهم شبيه ما يُعرَض لمن ظنَّ أنَّ الخفاف هو الذي عنده خفاف كثيرة، لا الذي يقدر على عملها، وهو بيِّن أنَّ الذي عنده خفاف كثيرة سيأتيه إنسان بقدَم لا يجد في خفافه ما يصلح لقدمه، فيلجأ إلى صانع الخفاف

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٨.

(٢) الموافقات (١/ ٥٧)، وانظر: بدائع السلك في طبائع الملك (٢/ ٣٣٧).

ضرورة، وهو الذي يصنع لكل قدم خفًا يوافقه، فهذا هو مثال أكثر المتفقهة في هذا الوقت»^(١).

الشرط الثالث: الممارسة المباشرة:

أعني بالممارسة المباشرة -التي هي أحد أصول اكتساب ملكة الفقه-: جميع طرق التعلم التي يباشر المتعلم فيها التجربة بنفسه، فيواجه الحقائق، ويحس بها، ويتبع الخطوات الموصلة إلى النتائج.

ويقابل (الممارسة المباشرة): التعليم النظري، الذي يتلقى المتعلم فيه المسائل مسلّمة مقرّرة، وتكون وظيفته فيها التلقّي المحض.

فالممارسة والدّربة لدى الفقهاء أصل من أصول الرّسوخ في الفقه واكتساب ملكته، ولذا عدّوها شرطاً في المجتهد والمفتي، قال الخطيب البغدادي في صفة المفتي الذي يلزم قبول قوله: أن «يكون عالماً بالأحكام الشرعية، وعلمه بها يشتمل على معرفته بأصولها، وارتياضه^(٢) بفروعها»^(٣)، ويؤكد ذلك بقوله: إذا ذكر للمستفتي

(١) بداية المجتهد (٣/ ١٢٨٤).

(٢) الارتياض من قولهم: راض المُمهر رياضاً ورياضة، أي: ذلّله. انظر: القاموس المحيط ص ٦٤٤، فالرياضة هي تمرين النفس على أمر حتى تنقاد وتعتاده.

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٣٠)، وانظر: المجموع (١/ ٩٦)، صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ص ١٨.

والخطيب يؤكد ذلك بقوله: إذا ذكر للمستفتي اثنان من العلماء بدأ بالأسنّ منها والأكثر رياضة ودربة. انظر: المرجع السابق (٢/ ٣٧٩).

اثنان من العلماء بدأ بالأسنّ منها والأكثر رياضة ودربة^(١).

وحثوا المتعلم على أن يأخذ بنصيبه من الممارسة والمِمران، قال أبو المعالي الجويني: «أهمُّ الطالب في الفقه: التدرب في مآخذ الظنون في مجال الأحكام، وهذا هو الذي يسمّى فقه النفس، وهو أنفس صفات علماء الشريعة»^(٢).

وقال الزركشي: «ليس يكفي في حصول الملكة على شيء تعرّفه، بل لا بُدَّ مع ذلك من الارتياض في مباشرته»^(٣).

ونبّه الطاهر بن عاشور في بحثه لأسباب تأخر التعليم إلى أن «انقطاع العمل - أي التمرين - عن التعليم قد محّاه روح العلوم من الأذهان، فصير العلم قواعد واصطلاحات لا يُهتَمُّ فيها بعمل، ولا يُمرّن صاحبها»^(٤).

ويُرشد علقمة بن قيس رحمته الله تلميذه إبراهيم النخعي إلى أهميّة التمرين لترسيخ العلم فيقول: «إذا أردت أن تعلم الفرائض فأمت جيرانك!»^(٥).

ولا خفاء فيما يورّثه المِمران والدربة من الرُّسوخ، فهو يعطي المتفقه من التصوّر الجليّ ما لا يكون بالدراسة النظرية، ويُطلعه من عوارض

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٧٩).

(٢) غياث الأمم ص ٤٨٠.

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه (٦/ ٢٢٨).

(٤) أليس الصبح بقريب ص ١٦١.

(٥) الفقيه والمتفقه (٢/ ١٦٢).

الموضوع الذي يتعلّمه على ما لا يُطلّع عليه بالدراسة التجريدية المنقطعة عن الواقع، وبالتجربة والممارسة يبلو المرء نفسه ومعلوماته، ويكتشف من ذلك ما يحتاج إلى مراجعة أو تعديل أو تقويم، بل إنّ وقوع الخطأ من المتدرب أحد أسباب رسوخ الصواب في نفسه، ف«لولا الخطأ ما أشرق نور الصواب»^(١)، ولا يزال المتعلّم في دربة وتجربة إلى أن يُتقن العلم ويتعاطاه بطمأنينة وثقة وتلقائية.

وهذا أمر لا يختصّ بعلم الفقه، بل هو مشاهد في كلّ علم وصناعة، فإنه لا يكاد يوثق برأي بناءٍ أو نجارٍ أو صانع معرفته بفنّه معرفة نظرية لا ممارسة فيها، بل ولا يستحقّ النسبة إلى تلك الصّناعة.

وهذه العناية بالممارسة المباشرة هي ما تتجه إليه (النظرية البنائية) في علم النفس التربوي الحديث، وهي نظرية حظيت بقبول متنام من أكثر التربويين، وُبني على أساسها كثير من مشاريع تطوير التعليم حديثاً^(٢)، وتتلخّص هذه النظرية في أنّ التعلّم عملية بناء، يتولى المتعلّم الدور الأكبر فيها، وليست عملية نقل يقوم بها المعلّم بالدرجة الأولى.

فبعد أن كانت نظرة كثير من المعلمين إلى التعلّم أنّه عملية انتقال إلى المتعلّم من الخارج، جاءت النظرية البنائية لتقدّم تصوّراً

(١) من قول عبد الله بن المعتز، رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (٨/٢).

(٢) انظر: النظرية البنائية الاجتماعية وتطبيقاتها التدريسية في المنهج ص ٩-١٠.

آخر للتعلُّم، هو أنه عملية بناء داخل المتعلِّم، فالمتعلِّم يبني المعرفة في أثناء محاولته فهم ما يقابله من خبرات، أي أنَّ المتعلِّم يبني فهمه الخاصَّ عن العالم من حوله، بدلاً من أخذ الفهم عن الآخرين، وعلى ذلك فالمعلومات الخام التي يتلقاها المتعلِّم ليست تعلُّماً، بل التعلُّم هو ما يتمُّ لهذه المعلومات داخل المتعلِّم، أي عملية بناء المعاني من هذه المعلومات، فعملية التعلُّم هي عملية التعقُّل والتفهُّم لتلك المعلومات، وليس مجرد استقبالتها وتخزينها؛ ولذا تضع هذه النظرية المتعلِّم في مركز عملية التعلُّم.

وتبعاً لقبول الأوساط التربوية لهذه الرؤية في تفسير التعلُّم؛ تحوَّل دور المعلم من مصدر رئيس أو وحيد للمعلومة، ومن متحكم في عملية التعلُّم، إلى مُيسِّر ومنسِّق لها، وتحوَّل دور الطالب من مستقبل سلبيٍّ في كثير من الأحيان إلى متعلِّم نشط يقوم ببناء المعرفة استناداً إلى معلوماته السابقة وخبراته^(١).

وتُبيِّن الدِّراسات النفسِيَّة أيضاً أنَّ هذا النوع من التعلُّم الفعَّال الذي تتوطأ فيه الحواس، أرسخ لدى المتعلِّم وأكثر إعمالاً للدِّماغ^(٢).

(١) انظر: النظرية البنائية الاجتماعية وتطبيقاتها التدريسية في المنهج ص ١١-١٣.
(٢) فقد أثبتت الدراسات التي أجريت في الولايات المتحدة أن التلميذ يمكن أن يتذكر ١٠٪ مما قرأه، و ٢٠٪ مما سمعه، و ٣٠٪ مما رآه، و ٥٠٪ مما سمعه ورآه جميعاً، و ٧٠٪ مما رواه أو قاله، و ٩٠٪ مما عمله. انظر: المنهج أسسه ومكوناته ص ١٧٤، علم النفس التربوي الأسس النظرية والتطبيقات العملية ص ٢٢٤.

وللممارسة المباشرة في تعلُّم الفقه مسالك، نراها ظاهرة في تعليم النبي ﷺ لأصحابه، ثم في سيرة الفقهاء -رحمهم الله- منها:

أ - العمل بالعلم:

فالعمل بالعلم -مع كونه أحد مقتضيات الإيمان ولوازمه؛ وعلامة على إخلاص طالب العلم- سبب أصيل من أسباب رسوخه في النفس، واتِّضاحه في الذهن، وسلامته من آفة النسيان، قال الشعبي رحمته الله: «كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ بِالْعَمَلِ بِهِ»^(١)، وقال وكيع رحمته الله: «إِذَا أُرِدْتُ أَنْ تَحْفَظَ الْحَدِيثَ فَاعْمَلْ بِهِ»^(٢)، ويقول ابن القيم رحمته الله: «لِرِكَازِ الْعِلْمِ... طَرِيقَانِ، أَحَدُهُمَا: تَعْلِيمُهُ، وَالثَّانِي: الْعَمَلُ بِهِ، فَإِنَّ الْعَمَلَ بِهِ أَيْضًا يَنْمِيهِ وَيَكْثُرُهُ وَيَفْتَحُ لَصَاحِبِهِ أَبْوَابَهُ وَخَبَايَاهُ»^(٣).

ويقول الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمته الله: «العلم يستحضره صاحبه في النفس مجملًا غير سالم من غموض أو إبهام، فإذا أبرزه بالعمل للوجود صار تفصيليًا جليًا واضحًا، وبكثرة... مداومة العمل يكون النظريُّ منه بَدَهِيًا ضروريًّا»^(٤).

(١) جامع بيان العلم وفضله (١١/٢).

(٢) معرفة أنواع علوم الحديث ص ٢٤٧، وانظر: جامع بيان العلم وفضله (١٣٢/٢).

(٣) مفتاح دار السعادة (١٨٤/١).

(٤) صفوة الآثار والمفاهيم (١٧٢/٢).

وسبقت الإشارة إلى الدراسة التي أوضحت أنَّ المتعلم يتذكر ما نسبته ٩٠٪ من المعلومات إذا عمل بها، في مقابل تذكره لـ ٢٠٪ لما سمعه فقط. انظر: ص ٢٥٥.

ومن الشواهد الفقهِيَّة على أثر العمل بالعلم في صحة التَّصَوُّر:
تقديم العلماء لقول المكيِّين في مسائل المناسك؛ لمشاهدتهم الحجيِّج
ومعالم الحرم، قال سفيان بن عَيِّنة: خذوا المناسك عن أهل مكة ^(١)،
وقال ابن تيمية: المكيُّون من الفقهاء هم أعلم أهل الأمصار
بالمناسك ^(٢).

وبعض من لم يحجَّ من العلماء وقع منهم أغلاط في بعض مسائل
الحجِّ، فابن حزم رحمته الله ذكر في صفة حجِّ النبي صلَّى الله عليه وآله أنه حين سعى بين
الصِّفا والمروة خبَّ ثلاثاً ومشى أربعاً ^(٣).

قال ابن القيم: «هذا من أوهامه وغلطه رحمته الله فَإِنْ أَحَدًا لم يُقَلِّ هذا
قطَّ غيره، ولا رواه أحد عن النبي صلَّى الله عليه وآله البتة، وهذا إنما هو في الطَّواف
بالبَيْت، فغلط أبو محمد ونقله إلى الطَّواف بين الصِّفا والمروة...
وسألت شيخنا عنه، فقال: هذا من أغلاطه، وهو لم يحجَّ، رحمه الله
تعالى» ^(٤).

وكذلك القاضي عياض رحمته الله، فقد ذكر الروايات في خروج النبي
صلَّى الله عليه وآله من مكة في حجة الوداع، واستشكل ما يوهمه بعضها من تكرُّر
طواف الوداع منه صلَّى الله عليه وآله، وذكر احتمالاً في الجمع بينها: أَنَّ النبي صلَّى الله عليه وآله أعاد

(١) معجم البلدان (٤/٤٩٣).

(٢) انظر: شرح العمدة في بيان مناسك الحج والعمرة (٢/٥٢٢).

(٣) انظر: حجة الوداع لابن حزم ص ١١٧.

(٤) زاد المعاد (٢/٢١٣).

طواف الوداع، وعَلَّ ذلك بـ«أَنَّ منزله كان بالأبطح، وهو بأعلى مكة، وخروجه من مكة إِنَّمَا كان من أسفلها؛ فكأنَّه لما توجه طالباً المدينة اجتاز بالمسجد ليخرج من أسفل مكة، فكَرَّر الطواف ليكون آخر عهده بالبيت»^(١).

وقد اعتذر له ابن حجر رحمته الله بقوله: «القاضي في هذا معذور؛ لأنَّه لم يشاهد تلك الأماكن، فظنَّ أَنَّ الذي يقصد الخروج إلى المدينة من أسفل مكة يتَحَنَّن عليه المرور بالمسجد، وليس كذلك كما شاهده من عاينه، بل الرَّاحل من منزله بالأبطح يمرَّ مجتازاً من ظاهر مكة إلى حيث مقصده من جهة المدينة، ولا يحتاج إلى المرور بالمسجد، ولا يدخل إلى البلد أصلاً»^(٢).

ب - أخذ العلم عن العلماء الربَّانيين:

في تلقِّي العلم عن العلماء منافع جمة لا يحصلها في العادة من انفراد باقتباس العلم من الكتب، فأخذ العلم عن العلماء: أسرع في الفهم، وأسلم من الوهم والغلط، وبه يتأدَّب الطالب بأدب العلم بصحبة العالم واقتدائه به، ويأخذ عنه من العلم ما لا تؤدِّيه الكتب، والاقتصارُ على الكتب بضدِّ ذلك؛ حتى قال الشافعي: «مَنْ تفقَّه من

(١) فتح الباري لابن حجر (٣/٦١٣).

(٢) المرجع السابق، الموضع السابق.

بطون الكتب ضيَّع الأحكام»^(١)، وقال غيره: «من دخل في العلم وحده خرج وحده»^(٢)، أي من دخل في العلم دون معلِّم خرج منه دون علم، وهذا يكاد يكون محل إجماع من أهل العلم^(٣).

قال الشاطبي رحمته الله: «من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقق به: أخذه عن أهله المتحقِّقين به على الكمال والتمام... وإن كان الناس قد اختلفوا: هل يمكن حصول العلم دون معلم أو لا؟ فالإمكان مسلم، ولكن الواقع في مجاري العادات أن لا بُدَّ من المعلم... وقد قالوا: إن العلم كان في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، وصارت مفاتيحه بأيدي الرجال.

وهذا الكلام يقضي بأن لا بُدَّ في تحصيله من الرجال... وأصل هذا في الصحيح: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء»^(٤)...

وهكذا كان شأن السلف الصالح، فأوَّل ذلك ملازمة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله صلَّى الله عليه وآله وأخذهم بأقواله وأفعاله، واعتمادهم على ما يرد

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ص ١٣٥.

(٢) الجواهر والدرر (١/٥٨).

(٣) انظر: حلية طالب العلم ص ٣١.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كيف يُقبض العلم، برقم (١٠٠)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، برقم (٢٦٧٣)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

منه كائنًا ما كان، وعلى أي وجه صدر، فهم فهموا مغزى ما أراد به حتى علموا وتيقنوا أنه الحق الذي لا يعارض، والحكمة التي لا ينكسر قانونها، ولا يحوم النقص حول حمى كمالها، وإنما ذلك بكثرة الملازمة، وشدة المثابرة... وصار مثل ذلك أصلاً لمن بعدهم؛ فالتزم التابعون في الصحابة سيرتهم مع النبي ﷺ حتى فقهوا ونالوا ذروة الكمال في العلوم الشرعية.

وحسبك من صحة هذه القاعدة أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك، وقلماً وجدت فرقة زائغة ولا أحد مخالف للسنة إلا وهو مفارق لهذا الوصف، وبهذا الوجه وقع التشنيع على ابن حزم الظاهري وأنه لم يلازم الأخذ عن الشيوخ ولا تأدب بأدابهم، وبضد ذلك كان العلماء الراسخون كالأئمة الأربعة وأشباههم^(١).

ويقول ابن خلدون: «الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله... والملكات كلها جسمانية، سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب، والجسمانيات كلها محسوسة؛ ففتقر إلى التعليم؛ ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة يفتقر إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً

(١) الموافقات (١/٥٦-٥٩).

عند كل أهل أفق وجيل»^(١).

ويقول الخطيب البغدادي: «لا بُدَّ للمتفقه من أستاذ يدرس عليه، ويرجع في تفسير ما أشكل إليه، ويتعرف منه طرق الاجتهاد، وما يفرق به بين الصحة والفساد»^(٢).

ويؤكد أبو حنيفة رحمته الله الوظيفة التوجيهية للمعلم فيقول -وقيل له: في المسجد حلقة ينظرون في الفقه- فقال: «لهم رأس؟» قالوا: لا، قال: «لا يفقه هؤلاء أبداً»^(٣).

ويقول الشوكاني: إنما تثبت الملكة بطول الممارسة وكثرة الملازمة لشيخ الفن^(٤).

والذي يعنينا هنا من منافع تلقي العلم عن العلماء: ما في ذلك من الممارسة المباشرة للفقه، وذلك أن أخذ الفقه عن المعلم الرباني لا ينحصر في الدراسة النظرية للفقه، بل من شأن ذلك المعلم أن يعلم تلميذه تعليماً حياً تطبيقياً:

● فهو يعلم بقوله وفعله وحاله، فهو أسوة وقُدوة صالحة للمؤتسين، وقد جاء في سيرة الإمام أحمد وغيره من

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٨-٣٩٩، وانظر: بدائع السلك في طبائع الملك (٢/ ٣٣٦).

(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ١٦٢).

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ١٦٣).

(٤) إرشاد الفحول ص ٦٥٤.

العلماء: أنه كان يحضر حلّقه أناس ليتعلّموا منه الهدي والسّمّت^(١)، وكان أصحاب الأئمة ينقلون عنهم من أفعالهم وسيرهم الحميدة مثل ما ينقلون عنهم من الفتاوى والمسائل، وكتب السير والتراجم نموذج لذلك.

• وهو يُدرّب المتفكّه على المهارات الفقهيّة بما يزاوله أمام المتعلّمين من تصوير المسائل والاستدلال والاستنباط والترجيح، فيتلقّى الطالب منه كيفية ذلك ويبصر خطوات سيره ووصوله إلى النتائج^(٢).

• وهو يُعلّم التلاميذ تعليمًا نشطًا^(٣)، يستعمل فيه الطرق التعليميّة المثيرة لفكر الطالب والمثقف لعقله، كالمناقشة والسؤال والمناظرة.

(١) انظر: مناقب الإمام أحمد ص ٢٨٨.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢٦/٣٤٨)، إصلاح الفقيه ص ١٨٥.

(٣) التعليم النشط: مصطلح تربوي معاصر، يُراد به: أساليب التعليم التي تُعمل المهارات العقلية العليا لدى الطالب، وذلك لا يتم إلا بإشراك المتعلم في العمل وفي التفكير.

ففي التعلم النشط يشارك الطلبة بأكثر من مجرد الاستماع، ويقل التركيز على نقل المعلومات ويزداد على تنمية مهارات الطلبة، ويأرس الطلبة مهارات تفكير عليا، فالمعلم لا يقتصر دوره على تقديم المعلومات، بل يتعداه لدعم جهود الطالب للتعلم والتجارب معها، والطالب لا يقتصر دوره على تلقي ما يلقيه المعلم أو نسخه عنه، لكن يزاوّل التفكير وبناء المعاني بشكل نشط. انظر: النظرية البنائية الاجتماعية وتطبيقاتها التدريسية في المنهج ص ٣٣.

ج - إعمال الفكر في التفقه:

الفقه هو الفهم، والفهم ثمرة إعمال الفكر؛ فلا فقه بلا فكر. لكن الواقع العلمي المتمثل في تدوين العلم في الكتب قد يُنسي طالب العلم هذه الحقيقة، فيتحوّل في تلقّيه العلم من فقيه متفهم لما يأخذ، إلى حامل فقهٍ يغلب حفظه تمييزه وفهمه.

والتفكير يدخل العمل الفقهيّ في كلّ مجالاته؛ فلا بُدّ من التفكير في تصوّر المسائل، وفي الاستدلال لها، وفي تنزيل الأحكام على الوقائع، والتفكير - كما هو سبيل المتفقه النابه - هو سبيل المعلم الجيّد، فما أكثر ما كان رسول الله يُخرج التعليم مخرج السؤال فيستثير فكر أصحابه بذلك.

يقول الخطيب البغدادي: «لِيَعْلَمَنَّ أَنَّ الْإِكْثَارَ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ وَرَوَايَتِهِ لَا يَصِيرُ بِهِ الرَّجُلُ فَقِيهًا، وَإِنَّمَا يَتَفَقَّهُ بِاسْتِنْبَاطِ مَعَانِيهِ، وَإِنْعَامِ التَّفَكُّيرِ فِيهِ»، ثم روى عن مالك رحمه الله قوله لابن أبي بكر وإسماعيل ابني أبي أويس: «أراكما تحبان هذا الشأن وتطلبانه» قالا: نعم. قال: «إن أحببتما أن تنتفعا به وينفع الله بكما، فأقلّا منه وتفقهّا»^(١).

ويقول الزرنوجي: «ينبغي لطالب العلم أن يكون متأملًا في جميع الأوقات في دقائق العلوم، ويعتاد ذلك؛ فإننا ندرك الدقائق بالتأمّل»^(٢).

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ١٥٩).

(٢) تعليم المتعلم طريق التعلم ص ١٨.

يقول أيضاً: «لا يكتب المتعلّم شيئاً لا يفهمه؛ فإنه يورث كلاله الطبع ويذهب الفطنة ويضيع أوقاته، وينبغي أن يجتهد في الفهم عن الأستاذ، وبالتأمل والتفكر وكثرة التكرار... وإذا تهاون في الفهم ولم يجتهد مرّة أو مرّتين يعتاد ذلك؛ فلا يفهم الكلام اليسير»^(١).

د - المباحثة:

المباحثة هي الاشتراك في بحث معاني النصوص ومسائل الفقه لتفهّمها، وإبداء الإشكالات للتعاون على حلّها، وبذلك يتحقّق للمتفقّه الممارسة المباشرة للفقه.

والمباحثة في العلم من أبلغ أسباب رسوخه، ف«العلم إذا لم يستعمل ولم يُذكر به كالمسك إذا طال مكثه في الوعاء ذهب ريحه، وكالماء الصافي إذا طال مكثه نشفت الأوعية والهواء وغيرته، وذهبت بأكثره أو بكُلّه، وتغيّر ريحه وطعمه، وكالبئر تحفر فتجري فيها عين، فإن حصل له طريق حتى ينتشر صار نهراً وكثر ونفع وعاش به الحيوان، وإن حبس وترك قلّ نفعه وربما غار، فكذلك العلم إذا لم يذكر به ولم يبحث عنه، وإذا ذكرت بالعلم ونشرته صار كالنهر الجاري دائم النفع، غزير الماء، إن قلّ مرّة لعارض زاد أخرى، وإن تكدّر وقتاً لعلّة صفا في ثانٍ، وتحيا به الأرض والزرع والحيوان»^(٢).

(١) تعليم المتعلم ص ١٧.

(٢) الفقيه والمتفقّه (١٠/٢).

يقول الخطيب: «أستحب أن يخصَّ (١) يوم الجمعة بالذاكرة لأصحابه في المسجد الجامع، وإلقاء المسائل عليهم، ويأمرهم بالكلام فيها، والمناظرة عليها» (٢).

وقال -بعد أن عدّ العلوم الدينيّة والدينيّة التي يحتاج إليها المفتي-: «فمن شرط المفتي: النظر في جميع ما ذكرناه، ولن يدرك ذلك إلا بملاقة الرّجال والاجتماع مع أهل النّحل والمقالات المختلفة ومساءلتهم، وكثرة المذاكرة لهم، وجمع الكتب ودرسها ودوام مطالعتها» (٣).

وقال النووي رحمته الله: مذاكرة حاذق في الفن ساعة أنفع من المطالعة والحفظ ساعات، بل أياماً! (٤).

ويصرح ابن خلدون بأنّ المحاوره في العلم من أقرب طرق تحصيل الملكة فيقول: «أيسر طرق هذه الملكة: فتح اللسان بالمحاوره والمناظرة في المسائل العلميّة، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها»، ثم عاب فئة من طلاب العلم لا يتحاورون ولا يتناظرون فقال: «فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلميّة سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من

(١) أي: الفقيه.

(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٧٤).

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٣٤).

(٤) شرح صحيح مسلم (١/ ٤٨).

الحاجة؛ فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علّم، وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية، وليس كذلك»^(١).

ويبلغ الشيخ زكريا الأنصاري في تأكيد مكانة المذاكرة أن جعلها شرطاً من شروط التعلم، فيقول: السابع من شروط التعلم: «أن يُذكر به الأقران والأنظار طلباً للتحقيق لا للمغالبة بل للمعاونة على الإفادة والاستفادة»^(٢).

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: ينبغي للمعلم أن يمرّن الطالب على المباحثة وتصوير المسائل، وبيان حكمتها ومآخذها، ومن أي الأصول الشرعية أخذت، فإن معرفة الأصول والضوابط واعتبارها بالمسائل والصُّور من أنفع طرق التعليم، وكذلك ينبغي له أن يوقظ فهمه بكثرة البحث والسؤال والجواب^(٣).

ويقول: ومما يعين على هذا المطلوب^(٤): أن يفتح المعلم للمتعلّمين باب المناظرة في المسائل والاحتجاج، وأن يكون القصد

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٠.

(٢) اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم ص ٦.

(٣) المعين على تحصيل آداب العلم وأخلاق المتعلمين ص ٣٠، بتصرف يسير.

(٤) يعني: الرجوع إلى الصواب عند تبيّنه، والبعد عن التعصب.

واحدًا، وهو اتباع ما رجحته الأدلة، فإنه إذا جعل هذا الأمر نصب عينيه وأعينهم تنورت الأفكار وعرفت المآخذ والبراهين، وأتبع الحقائق^(١).

وقد قال جماعة من العلماء: كان الرجل من أهل العلم إذا لقي من هو فوقه في العلم فهو يوم غنيمة، سألته وتعلّم منه، وإذا لقي من هو دونه في العلم علّمه وتواضع له، وإذا لقي من هو مثله في العلم ذكره ودارسه^(٢).

وأبو حنيفة رحمه الله في مقدمة الفقهاء الذين برز في تدريسهم سمة المحاورة والمباحثة، روى الحسن بن زياد قال: كان أصحاب أبي حنيفة يجتمعون إليه في ناحية المسجد، وكان مسعر بن كدام يقوم يصلي في ناحية أخرى، فكان أصحاب أبي حنيفة ما بين سائل له ومناظر، وكانوا يرفعون أصواتهم حتى يسكنون لكثرة ما يحتجّ لهم؛ فكان مسعر يقول: إن رجلاً يُسكن الله به هذه الأصوات لعظيم الشأن في الإسلام^(٣).

(١) المعين على تحصيل آداب العلم وأخلاق المتعلمين ص ٥١، بتصرف يسير.
(٢) رويت هذه الكلمة عن عبد الرحمن بن مهدي. المحدث الفاضل ص ٢٠٦، سير أعلام النبلاء (٢٠٣/٩)، وعن أبي حازم. انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٤١٥/٢)، وعن الخليل بن أحمد. انظر: معجم الأدباء (١٢٦٤/٣).

(٣) انظر: مناقب الإمام الأعظم ص ٣٦.

وقال سفيان بن عيينة: مررت بأبي حنيفة في المسجد، وإذا أصحابه حوله قد ارتفعت أصواتهم، فقلت: ألا تنهاهم عن رفع الصوت في المسجد؟ قال: دعهم؛ فإنهم لا يتفقهون إلا بهذا^(١).

وقال أسد بن عمرو: كانوا يختلفون عند أبي حنيفة في جواب المسألة، فيأتي هذا بجواب، وهذا بجواب، ثم يرفعونها إليه ويسألونه عنها، فيأتي الجواب من كُتِّب، وكانوا يقيمون في المسألة ثلاثة أيام ثم يكتبونها في الديوان^(٢).

هـ - النظر في أقوال الفقهاء وكتبهم للتفقه بها لا للتقليد:

التفقه بالنظر في كتب الفقهاء يوقف المتفقه على التطبيقات الصحيحة للقواعد، فيرى كيف يستدلُّ الفقهاء، وكيف يجمعون بين الأدلة، وكيف يطبِّقون الأحكام الكلية على الوقائع، وذلك أمر لا تغني عنه المعرفة النظرية لقواعد أصول الفقه، وبكثرة مرور تلك المسائل والفروع ترسخ لدى المتفقه ملكات الاستدلال والاستنباط والتخريج.

ولذا قال الزركشي رحمته الله: «ليس يكفي في حصول الملكة على شيء تعرُّفه، بل لا بُدَّ مع ذلك من الارتياض في مباشرته، فلذلك إنما تصير

(١) مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه ص ٣٥.

(٢) حسن التقاضي ص ١٢.

للفقيه ملكة الاحتجاج واستنباط المسائل أن يرتاض في أقوال العلماء وما أتوا به في كتبهم، وربما أغناه ذلك عن العناية في مسائل كثيرة»^(١).

وقيل لابن المبارك رحمته الله: متى يفتي الرجل؟ فقال: إذا كان عالماً بالأثر، بصيراً بالرأي^(٢).

ولعظيم انتفاع المتفقه بهذا المسلك من مسالك الملكة أرشد الفقهاء إليه كثيراً، ومن أجمل تلك الكلمات كلمة الإمام مالك رحمته الله، وقد كان ينهى عن كتابة فتاويه، فسئل: ماذا نصنع؟ فقال: «تحفظون وتفهمون حتى تستتير قلوبكم، ثم لا تحتاجون إلى الكتاب»^(٣).

وهي كلمة بليغة، بين فيها الإمام أن الغرض من النظر في كلام الفقهاء هو إنارة القلوب، المعبر بها عن فهم أسلوب الفقه ومعرفة طريق الوصول إلى الأحكام.

ولفقيه الأندلس الكبير أبو عمر بن عبد البر رحمته الله كلمة يوافق فيها كلام مالك رحمته الله، يقول فيها: «من اقتصر على علم إمام واحد وحفظ ما كان عنده من السنن ووقف على غرضه ومقصده في الفتوى حصل على نصيب من العلم وافر، وحظ منه حسن صالح، فمن قنع بهذا اكتفى، والكفاية غير الغنى... ومن طلب الإمامة في الدين، وأحب

(١) البحر المحيط (٨/٢٦٦).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/٤٧).

(٣) الموافقات (٤/٥١).

أن يسلك سبيل الذين جاز لهم الفتيا، نظر في أقاويل الصحابة والتابعين والأئمة في الفقه إن قدر على ذلك... فمن أحبّ الاختصار على أقاويل علماء الحجاز اكتفى إن شاء الله واهتدى، وإن أحبّ الإشراف على مذاهب الفقهاء متقدمهم ومتأخرهم بالحجاز والعراق وأحبّ الوقوف على ما أخذوا وتركوا من السُّنن وما اختلفوا في تثبيتته وتأويله من الكتاب والسُّنة، كان ذلك له مباحًا ووجهًا محمودًا، إن فهم وضبط ما علم وسلم من التخليط، نال درجة رفيعة ووصل إلى جسيم من العلم، وأتسع ونبل إذا فهم ما أطلع، وبهذا يحصل الرُّسوخ لمن وفقه الله وصبر على هذا الشأن واستحلى مرارته واحتمل ضيق المعيشة فيه...

فعليك يا أخي حفظ الأصول والعناية بها، واعلم أن من عُني بحفظ السُّنن والأحكام المنصوصة في القرآن، ونظر في أقاويل الفقهاء فجعلها عونًا له على اجتهاده، ومفتاحًا لطرائق النُّظر، وتفسيرًا لجمال السُّنن المحتملة للمعاني، ولم يقلد أحدًا منهم تقليد السُّنن التي يجب الانقياد إليها على كلِّ حال دون نظر، ولم يُرح نفسه مما أخذ به العلماء أنفسهم من حفظ السُّنن وتدبرها، واقتدى بهم في البحث والتفهّم والنُّظر، وشكر لهم سعيهم فيما أفادوه وتبَّهوا عليه، وحمدهم على صوابهم الذي هو أكثر أقوالهم، ولم يبرِّئهم من الزلل كما لم يبرِّئوا أنفسهم منه، فهذا هو الطالب المتمسك بما عليه السلف

الصالح، وهو المصيب لحظه، والمعين لرشده، والمتبع لسنة نبيه ﷺ وهدى صحابته رضي الله عنهم»^(١).

وفي هذا الباب أيضاً يقول ابن القيم رحمه الله: «ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم في كل ما قال وبين الاستعانة بفهمه والاستضاء بنور علمه، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة، بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في عنقه يقلده به، ولذلك سُمي تقليداً، بخلاف من استعان بفهمه واستضاء بنور علمه في الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول، فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره، فمن استدلل بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبقَ لاستدلاله بالنجم معنى»^(٢).

ويصرح الطاهر بن عاشور بأن الغاية من تدوين العلوم هي تكوين الملكات فيها فيقول: «العلوم ما دُوّنت إلا لترقية الأفكار وصقل مرائي العقول، وبمقدار ما يفيد العلم من ذلك ينبغي أن يزداد في اعتباره، فما القصد من كل علم إلا إيجاد الملكة التي استخدم لإصلاحها، ونعني بالملكة: أن يصير العمل بتعليمات العلم سجية للمتعلم لا يحتاج معها إلى مشايعة القواعد إياه»^(٣).

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٦٩-١٧٣).

(٢) الروح ص ٣٥٦.

(٣) أليس الصبح بقريب ص ١٥٧.

والأصوليون يذكرون خلافاً في معرفة فروع الفقه هل هي شرط للمجتهد؟ والمشهور بينهم: أنها ليست بشرط؛ لأنّ هذه الفروع من استنباط المجتهدين؛ فاجتهادهم متقدّم على وجود تلك الفروع، فيمتنع أن تكون معرفتها شرطاً للاجتهاد^(١)، لكنّ الغزالي رحمه الله ينبّه على أنّ معرفة الفروع وإن لم تكن شرطاً للاجتهاد فهي الوسيلة للتدرّب عليه، فيقول: «كيف يُحتاج إلى تفاريع الفقه وهذه التفاريع يولدها المجتهدون ويحكمون فيها بعد حيازة منصب الاجتهاد، فكيف تكون شرطاً في منصب الاجتهاد وتقدّم الاجتهاد عليها شرط؟ نعم، إنّما يحصل منصب الاجتهاد في زماننا بممارسته، فهو طريق تحصيل الدّربة في هذا الزمان، ولم يكن الطريق في زمان الصحابة ذلك، ويمكن الآن سلوك طريق الصحابة أيضاً»^(٢).

ولهذا دوّن الفقهاء في مصنّفاتهم الأقوال الضعيفة، والتي رجع عنها أصحابها، وهي ليست مما يُفتى به أو يُعمل به، لكنهم قصدوا -فيما قصدوا من ذلك- بيان مسالك الفقهاء ومآخذهم في النظر؛ تفقيهاً للنّاظر وتبصيراً له بطرق الاجتهاد^(٣).

(١) انظر: البحر المحيط (٢٠٥/٦)، جمع الجوامع مع حاشية البناي (٣٨٥/٢)، صفة الفتوى والمفتي والمستفتي ص ١٦، التحبير شرح التحرير (٣٨٦٩/٨)، شرح الكوكب المنير (٤٦٧/٤)، إرشاد الفحول ص ٦٥٥.

(٢) المستصفى (٣٨٨/٢).

وانظر: الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ٥٤.

(٣) انظر: المحصول (٧١/٦)، شرح مختصر الروضة (٦٢٦/٣)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ١٩٩.

و - تنوع مصادر العلم:

لأهمية تنوع مصادر المعرفة قال جماعة من العلماء: من لم يعرف الاختلاف لم يشم أنه الفقه! أو: فلا تعدّوه عالماً^(١)، ووضح الشاطبي وابن السبكي أن معرفة الخلاف التي يكون بها المرء فقيهاً: هي معرفة مآخذ الأقوال وسبب اختلافها، لا مجرد حفظها، يقول ابن السبكي: «لا يهون الفقيه أمر ما نحكيه من غرائب الوجوه وشواذ الأقوال وعجائب الخلاف قائلًا: حسب المرء ما عليه الفتيا. فليعلم أن هذا هو المضيق للفقيه، أعني الاختصار على ما عليه الفتيا، فإن المرء إذا لم يعرف علم الخلاف والمآخذ لا يكون فقيهاً إلى أن يلج الجمل في سم الخياط، وإنما يكون رجلاً ناقلاً نقلاً مخبطاً، حامل فقه إلى غيره لا قدرة له على تخريج حادث بموجود، ولا قياس مستقبل بحاضر، ولا إلحاق شاهد بغائب، وما أسرع الخطأ إليه وأكثر تراحم الغلط عليه، وأبعد الفقه لديه»^(٢).

ويقول الخطيب البغدادي رحمته الله: «فمن شرط المفتي النظر في جميع ما ذكرناه، ولن يدرك ذلك إلا بملاقة الرجال، والاجتماع مع أهل النحل والمقالات المختلفة، ومساءلتهم وكثرة المذاكرة لهم، وجمع الكتب ودرسها ودوام مطالعتها»^(٣).

(١) رويت هذه المقالة عن قتادة وسعيد بن أبي عروبة وهشام بن عبيد الله الرازي.

انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/٤٦).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (١/٣١٩)، وانظر: الموافقات (٤/٨٩).

(٣) الفقيه والمتفقه (٢/٣٣٤).

بل يعدّ الشافعي رحمته الله من شروط المجتهد: ألا «يُمْتَنَع من الاستماع من خالفه؛ لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة، ويزداد به تثبيتاً فيما اعتقده من الصواب، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده، والإنصاف من نفسه، حتى يعرف من أين قال ما يقول، وترك ما يترك، ولا يكون بما قال أعنى منه بما خالفه، حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك»^(١).

ففي تنوع مصادر التعلُّم من الثمرات المنمّية للملكة أنّه:

• يوسّع للمتعلّم مجال الانتفاع بعلم العلماء:

وذلك أنّ في كلّ كتاب ولكلّ شيخ وفي كلّ مذهب مزايا لا تُلفى في غيره، ففي توسعة نطاق الاطلاع جمعٌ لما تفرّق من تلك المحاسن، وبذلك يتمكّن المتفكّه من أن يختار من طرق العلم أقومها، وفي ذلك نماء للملكة لا يكون للمقتصر على وجه واحد وشيخ واحد، وأيضاً ف«البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل: تارة علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارة محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة، إلّا أنّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدّ استحكاماً وأقوى رسوخاً؛ فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها»^(٢).

(١) الرسالة ص ٥١٠-٥١١.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٧.

- أنه يُعمل لدى المتفقه ملكات ومهارات عقلية لا تُستثار إلا به.

وبذلك يقوى فكره ويستدُّ رأيه، كمهارات الفهم والتصور، والتحليل، والتمييز بين الرأي والحقيقة، وتمحيص الأدلة، والنقد، والدفاع عن القول، وجودة التعبير، واستحضار المعلومات، وحسن الاستفادة منها.

وهو إلى هذا يحفز قدرات الفقيه ويستنهضها إلى مستوى لم تكن بالغته، وفي هذا يقول ابن حزم: «لقد انتفعت بِمَحْك^(١) أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه تَوَقَّدَ طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سبباً إلى تواليف عظيمة المنفعة، ولولا استثارهم ساكني واقتداحهم كامني، ما انبعثت لتلك التواليف»^(٢).

- وهو يُدرَّب على أنواع من الأخلاق العلمية لا تُمارس إلا عند لقاء المخالف.

كحسن الاستماع وحسن الفهم، وكخلق الإنصاف والاستجابة للحق، وضبط النفس، وترك استصغار المخالف، وطرح الإعجاب بالرأي.

(١) المحك: اللجاج والمخاصمة. انظر: الصحاح (١٦٠٧/٤).

(٢) الأخلاق والسير ص ٦٣.

• أنّه ينبغي المتعلّم إلى تعدّد الأوجه والاحتمالات والخيارات:
وهو ما يُعبّر عنه بـ (سعة الأفق)، وذلك بابّ من الفقه، كما قال أبو
الدرداء رضي الله عنه: «لن تفقه كلّ الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً كثيرة»^(١)،
وهذا الإدراك يُحفّز المرء إلى بذل الجهد في التحقيق والوصول إلى
الصواب، ويدعوه إلى التمهّل والتثبت في الفتوى؛ كما قال أيوب
السختياني وسفيان بن عيينة: أجسر الناس على الفتيا أعلمهم علماً
باختلاف العلماء، وأمسك الناس عن الفتيا أعلمهم باختلاف
العلماء^(٢)، وهو أيضاً يُكسب الاعتدال في تناول الأقوال والحكم
عليها، فيشعر بظنيّة ما هو ظنيّ، ويرفع عن المرء توهم القطعيّة
حيث لا قطع، وينفي عن صاحبه معرّة التعصب للقول وسوء الظنّ
بالمخالف^(٣).

• أنّه مدعاة إلى التحقيق العلميّ:

بتمحيص المذاهب والاستدلال لها، وهذه نتيجة طبعيّة لمخالطة
المخالفين والتعرّض لنقدهم، فلا يخفى أنّ ذلك يكشف للإنسان ما

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٤٥)، وفيه أن حماد بن سلمة - الراوي - قال لأيوب
السختياني: أرايت قوله (حتى ترى للقرآن وجوهاً كثيرة)؟ قال: فسكت أيوب
بتفكير. قلت: أهو أن يرى له وجوهاً فيها الإقدام عليه؟ قال: هذا هو.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٤٦).

(٣) انظر: أهمية تدريس فقه القضايا المعاصرة، ضمن السجل العلمي لندوة تدريس
فقه القضايا المعاصرة في الجامعات السعودية (١/ ٢٣٥).

لديه وما لدى شيوخه وأهل طائفته من مواطن الضّعف فيتداركها بالإصلاح، بخلاف العيش في البيئة ذات المذهب الواحد، فهي داعية للسكون والرّضا بالحال، وهذا ما يشير إليه قول أيوب السخيتاني أيضًا: «إنك لا تعرف خطأ معلّمك حتى تجالس غيره»^(١)، وقول عطاء: «لا ينبغي لأحد أن يفتي الناس حتى يكون عالمًا باختلاف الناس؛ فإنّه إن لم يكن كذلك ردّ من العلم ما هو أوثق من الذي في يده»^(٢).

وشواهد ذلك في تاريخ الفقه الإسلاميّ ظاهرة، فقد كان لالتقاء الفقهاء والمذاهب أثر كبير في تقدّم الفقه تأصيلًا وتصحيحًا وتفريعًا، بل إنّ تنوّع مصدر المعرفة يظهر في تفاوت حال أصحاب المذهب الواحد، كما هو شأن المالكيين في بغداد وفي المغرب، فقد كان للعراقيين فضل التقدّم في الفقه على نظرائهم في المغرب، ولا يعزى هذا الفضل إلا لمخالطتهم أرباب المذاهب ومبادلتهم إياهم الفائدة، وما يلجئهم إليه ذلك من الاستدلال والتمحيص والردّ على المخالف والتمرّس على المناظرة، فكان في ذلك من العون على تحرير أصول المذهب وأدلّته ما لم يتوافر مثله لأهل المغرب^(٣).

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٩٩).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٤٦).

(٣) انظر: الإشراف على نكت مسائل الخلاف، مقدمة المحقق: الحبيب بن طاهر ص ٢٦-٦٦، ترتيب المدارك (٧/ ٤٦-٤٧، ٢٤٧-٢٤٨).

وبعد، فتجدر الإشارة هنا إلى أن لتنوع مصادر العلم شرطاً مهماً لتحقيق فائدته والسلامة من ضرره، هو ألا يكون هذا التنوع في طور التأسيس، فالمختار عند العلماء في مرحلة التأسيس العلميّ الاقتصار على القول الواحد والكتاب الواحد والمعلم الواحد^(١)؛ وذلك لما يؤدي إليه التنوع في هذه المرحلة غالباً من اختلاف الأساليب أو اختلاف الترويج والاختيار المؤدي غالباً إلى الحيرة.

ز - التعليم:

تعليم العلم من أسباب اكتساب ملكة الفقه؛ ولذا أرشد العلماء إليه كثيراً، فقال الخليل بن أحمد رحمته الله: «إن لم تعلم الناس ثوباً فعلمهم تدرس بتعليمهم علمك»^(٢).

وكان الفقيه أبو إسحاق بن فتوح الغرناطي (المتوفى سنة ٥٨٦٧هـ) يقول: لو استغنيت عن الوظائف لتركها، إلا وظيفة التدريس؛ لما فيها من الانتفاع بمذاكرة الطلبة^(٣).

وكان الشيخ عبد الرحمن السعدي يمتنّ لسائله، ويعرب عن انتفاعه بما يرد إليه من أسئلة فيقول: «ونحن ممنونون في كل ما يقع

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ١٩٠)، تذكرة السامع والمتكلم ص ١٧١، مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٠، أبجد العلوم (١/ ١٢٥).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٩٠).

(٣) روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام (٢/ ٩١٥).

لكم من إشكالات؛ لأنّها قد تصير سبباً لبحث أمور لم تخطر على البال ومراجعة محالّها، وهذا من طرق العلم؛ فلا تحرمونا ذلك»^(١).

فطبيعة موقف التعليم تُلجئ المعلّم إلى تحرير المسائل وتحقيقها والوقوف على مشكلاتها وإدراك تفاصيلها وازدياد التبصّر فيها، فكم من مسألة يرى المرء أنّه قد أحاط بها خبراً فإذا ما واجهها في صورة استفتاء أدرك من أغوارها وما يلابسها ما لم يكن في حسبانها، ودفعه ذلك إلى التعمّق في البحث، وكذلك الشأن في التدريس، فأسئلة المتعلّمين قد تنبّه المعلم إلى مواضع الضعف في علمه فيرأبّها بالمراجعة والتصحيح، كما قال الخليل بن أحمد: «لا تجزع من تفرّيع السؤال؛ فإنه ينبّهك إلى علم ما لم تعلم»^(٢)، وذلك مما يرتقي بالملكة ويورث الرُّسوخ، ولا سيّما عند الأخذ بالقول بوجوب تجديد الاجتهاد عند تكرّر النازلة.

وقد قال عليّ عليه السلام: «العلم يزكو على الإنفاق، والمال تنقصه النفقة»، وقال ابن القيم رحمته الله: «العالم كلّما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجّرت ينابيعه فازداد كثرة وقوّة وظهوراً، فيكتسب بتعليمه حفظ ما علّمه، ويحصل له به علم ما لم يكن عنده، وربما تكون المسألة في نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حيّز الإشكال فإذا تكلم بها

(١) المعين على تحصيل آداب العلم وأخلاق المتعلّمين ص ٣٥.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٩٠).

وَعَلَّمَهَا أَتَضَحَّتْ لَهُ وَأَضَاءَتْ وَانْفَتَحَ لَهُ مِنْهَا عُلُومٌ أُخَرُ، وَأَيْضًا فَإِنَّ
الْجُزْءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَكَمَا عَلَّمَ الْخَلْقَ مِنْ جِهَالَتِهِمْ جَزَاءَ اللَّهِ بِأَنْ
عَلَّمَهُ مِنْ جِهَالَتِهِ، كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ هَمَارٍ
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ: «وَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِي: أَنْفَقْ أَنْفَقَ
عَلَيْكَ»^(١)، وَهَذَا يَتَنَاوَلُ نَفَقَةَ الْعِلْمِ إِمَّا بِلَفْظِهِ وَإِمَّا بِتَنْبِيهِهِ وَإِشَارَتِهِ
وَفَحْوَاهُ»^(٢).

ح - البحث والتأليف:

البحث والتأليف من أفضل الوسائل إكسابًا للملكة، لما يجتمع
فيه من أنواع الممارسة الفقهية مما لا يجتمع في غيره، فالبحث في
مبدئه ناشئ عن استشكال، والاستشكال - وهو الشعور بمواضع
الخلل أو الغموض التي تحتاج إلى تحرير - أحد مظاهر ملكة الفهم
والتصور، والبحث يستلزم أيضًا تصوّر موضوع البحث وتحريره،
والتصوّر الصحيح والدقيق إحدى الملكات، ثم تتبّع الباحث أطراف
المسألة يكسبه ملكة وخبرة في الرجوع إلى الكتب معرفةً بها وبترتيبها
وبمواضع المسائل فيها، وهي ملكة أخرى، ووقوف الباحث على
الآراء المختلفة يوسع نظره، وهذا يدفعه - كما سبق - إلى مزيدٍ من
الاجتهاد في التحرّي والابتعاد عن المجازفة، والاعتدال في الحكم بين

(١) برقم (٢٨٦٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٤).

الآراء المخالفة، كما يبصره بمسالك العلماء وطرقهم في الاجتهاد.
وهو - إلى ذلك - يُكسب أخلاقاً وآداباً علمية لا غنى عنها،
مثل اعتياد الأناة والتثبت، والإنصاف والبعد عن التعصب، واتباع
الدليل، والدقة والبعد عن المجازفة في القول.

لهذا ولغيره كان البحث والتأليف سبيلاً قوياً نحو اكتساب ملكة
الفقه، ولهذا حث العلماء على سلوكه وصقل الملكة العلمية به^(١)،
فالخطيب البغدادي يقول: «إنه يقوّي النفس، ويثبت الحفظ، ويذكي
القلب، ويشحذ الطبع، ويبسط اللسان، ويُجيد البيان، ويكشف
المشبه، ويوضح الملتبس»^(٢).

ومما قيل أيضاً: استعمال القلم أجدر أن يحضّ ذهن على تصحيح
الكتاب من استعمال اللسان في تصحيح الكلام^(٣).

ويقول ابن هبيرة رحمته الله: «يحصل العلم بثلاثة أشياء:
أحدها: العمل به، فإنّ من كلّف نفسه التكلّم بالعربية دعاه ذلك إلى
حفظ النحو، ومن سأل عن المشكلات ليعمل فيها بمقتضى الشرع تعلّم.
والثاني: التعليم، فإنه إذا علّم الناس كان أدعى إلى تعليمه.

(١) انظر: تذكرة السامع والمتكلم ص ٦١، التعريف بآداب التأليف ص ٢٠-٢٢.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٤٢٢).

(٣) التعريف بآداب التأليف ص ٢٦.

الثالث: التصنيف، فإنه يُخرجُه إلى البحث، ولا يتمكن من التصنيف من لم يدرك غور ذلك العلم الذي صنف فيه»^(١).

ويقول السبكي رحمته الله: «اعلم أن كمال رتبة الاجتهاد يتوقف على ثلاثة أشياء:

أحدها: التأليف في العلوم التي يتهذب بها الذهن، كالعربية وأصول الفقه وما يحتاج إليه من العلوم العقلية في صيانة الذهن عن الخطأ، بحيث تصير هذه العلوم ملكة الشخص»^(٢).

ويقول النووي رحمته الله: «ينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تأهل له، فبه يطلع على حقائق العلم ودقائقه ويثبت معه؛ لأنه يضطره إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتحقيق والمراجعة والاطلاع على مختلف كلام الأئمة ومتفقه، وواضحه من مشكله، وصحيحه من ضعيفه... وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد»^(٣).

والنووي رحمته الله ذاته ممن ظهر في سيرته استعمال التأليف...، يقول عنه الإسنوي: إنه «لما تأهل للنظر والتحصيل رأى من المسارعة إلى الخيرات أن جعل ما يحصله ويقف عليه تصنيفاً، ينتفع به الناظر فيه، فجعل تصنيفه تحصيلاً، وتحصيله تصنيفاً...، ولولا ذلك لم يتيسر له

(١) ذيل طبقات الخابلة (٢/ ١٥٦).

(٢) الإبهاج في شرح المنهاج (١/ ٨).

(٣) المجموع (١/ ٧١).

من التصانيف ما تيسر، فإنه رحمته الله دخل دمشق للاشتغال وهو ابن ثماني عشرة سنة، ومات ولم يستكمل ستاً وأربعين^(١).

ط - المناظرة:

مقصود المناظرة وفائدتها الأولى: بيان الحق والوصول إلى الصواب، لكن لها مقاصد وفوائد أخرى، في مقدمتها: «تذليل طرق الاجتهاد والقوة على استثمار الأحكام من الأدلة واستنباطها منها، وشحذ الخاطر وتنبيه المستمعين على مدارك الأحكام ومآخذها»^(٢)، ولذا جاء عن عمر بن عبد العزيز رحمته الله قوله: «رأيت ملاحاة»^(٣) الرجال تلقيحاً لألبابهم»^(٤)، وقال: «ما رأيت أحداً لاحى الرجال إلا أخذ بجوامع الكلم»^(٥).

فالمناظر يقوم بتقرير القول والاستدلال له ودفع الشبه عنه، ويستمع إلى قول صاحبه فيلتزم قبول ما فيه من صواب، وإبطال ما فيه من خطأ بالدليل، وفي ضمن ذلك إعمال لقوى الذهن، وتمرن

(١) المهمات في شرح الروضة والرافعي (١/ ٩٩).

(٢) الإحكام للآمدي (٤/ ٢٣٢).

(٣) الملاحاة: المنازعة والمخاصمة، والمشاتمة. انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٤٢)، الصحاح (٦/ ٢٤٨١).

والمقصود هنا -كما قال يحيى بن مزين (راوي الخبر)-: يريد بالملاحاة هاهنا المخاوضة والمراجعة على وجه التعليم والتفهم والمذاكرة والمداورة.

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٠٨).

(٥) المرجع السابق، الموضع السابق.

على فنون من الفقه، من سرعة التصوّر والاستحضار، والانتقال من الدليل إلى المدلول، وتحليل كلام الخصم وتمييز خطئه من صوابه، وترتيب النتائج على المقدمات، كما أنّ في المناظرة تعرّضاً للنقد وكشفاً لمواضع الخطأ أو القصور لدى الإنسان، وفيها أيضاً - لمن أخذ بأدب المناظرة - تدريب النفس على أخلاق العلم، من الإنصاف وسرعة قبول الحقّ واحتمال القول المخالف وحسن الظنّ بقائله إذا كان مبنياً على استدلال صحيح، مع ما فيها من فوائد أخرى كطلاقة اللسان والجرأة على القول.

ولحاجة طالب العلم إلى المناظرة استحبّ الخطيب البغدادي رحمته الله للفقيه «أن يخصّ يوم الجمعة بالذاكرة لأصحابه في المسجد الجامع، وإلقاء المسائل عليهم، ويأمرهم بالكلام فيها، والمناظرة عليها»^(١)، وروى عن بعض الحكماء قوله: «العلم ميتٌ إحياءه الطلب، فإذا حيّ بالطلب فهو ضعيف قوّته الدرس، فإذا قوي بالدرس فهو محتجب إظهاره بالمناظرة، فإذا ظهر بالمناظرة فهو عقيم نتاجه العمل»^(٢).

ويقول الزرنوجي: «فائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار؛ لأنّ فيه تكراراً وزيادة، وقيل: مطارحة ساعة خير من تكرار شهر»^(٣).

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٧٤).

(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٨).

(٣) تعليم المتعلم ص ١٨.

ويرى الشيخ عبد الرحمن السعدي في المناظرة متدرِّبًا على التحلي بالإنصاف والرجوع إلى الصواب عند تبيُّنه، والبعد عن التعصُّب فيقول: «ومما يعين على هذا المطلوب أن يفتح المعلِّم للمتعلمين باب المناظرة في المسائل والاحتجاج، وأن يكون القصد واحدًا، وهو اتِّباع ما رجحته الأدلَّة، فإنه إذا جعل هذا الأمر نصب عينيه وأعينهم تنوَّرت الأفكار وعُرفت المآخذ والبراهين، وأتُّبعت الحقائق»^(١).

والمناظرة لا تكون مثمرة إلا إذا اتبعت آدابها، وعلى رأس هذه الآداب: حسن القصد، بأن يكون مقصود كل واحد من المتناظرين الوصول إلى الحقِّ وبيانه، ويوطَّن نفسه على قبوله إذا تبين، وضدُّ ذلك: أن يقصد بالمناظرة نصره قوله، حقًّا كان أو باطلاً.

ي - التجربة وممارسة الحياة:

مباشرة المرء الحياة وتقلُّبه في أحوالها وتجاربها مما يكسبه الخبرة والحكمة، وقد قيل: «لا حكيم إلا ذو تجربة»^(٢)، وهو مما يفيد الفقيه ملكة تنزيل الأحكام على الوقائع، فبتجربة المرء شؤون الحياة وملايساتها يدرك حاجات الناس وضروراتهم، ويفهم مقاصدهم في ألفاظهم وتصرفاتهم، ويتفطن لمكرهم، ويعرف البدائل والمخارج

(١) المعين على تحصيل آداب العلم وأخلاق المتعلمين ص ٥١، بتصرف يسير.

(٢) علقه البخاري مجزومًا به عن معاوية رضي الله عنه، في باب (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)، في كتاب الأدب من صحيحه.

المباحة عن المحرمات، بل ويكون أقدر على مخاطبتهم وإقناعهم وإفهامهم.

وإكباب المتفقه على الفقه النظريّ والبحث التجريديّ وانقطاعه عن معاشة الحياة يجرمه القدرة على حسن تنزيل الأحكام على الوقائع، قيل لعمر رضي الله عنه: فلان لا يعرف الشرّ! قال: «ذلك أجدر أن يقع فيه»^(١)، وقال الإمام أحمد رحمته الله: «لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه لفتيا حتى يكون فيه خمس خصال»، وذكر منها: معرفة الناس^(٢).

وقد لحظ ابن خلدون رحمته الله أن العلماء المقتصرين على البحوث النظرية «أبعد عن السياسة ومذاهبها، والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكريّ والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن أموراً كُليّة عامّة ليحكم عليها بأمر العموم... فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلّها في الذهن ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر.... فهم متعودون في سائر أنظارهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها، والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها فإنّها خفية»^(٣).

(١) البيان والتبيين (١/ ٧٥).

(٢) إبطال الخيل ص ٣٤، العدة (١٥٩٩/٥).

وتمام الخمس: أن تكون له نية، فإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور، الثانية: أن يكون له علم وحلم ووقار وسكينة، الثالثة: أن يكون قوياً على ما هو فيه وعلى معرفته، الرابعة: الكفاية وإلا مضغه الناس، الخامسة: معرفة الناس.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٧، وانظر: بدائع السلك ص ٣٩٥.

ويعدّ الغزالي رحمته الله اكتساب التجارب من أنفع فوائد مخالطة الناس التي لا تحصل بالعزلة، فالتجارب «تستفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم، والعقل الغريزي ليس كافيًا في تفهّم مصالح الدين والدنيا، وإنما تفيدها التجربة والممارسة، ولا خير في عزلة من لم تحنّكه التجارب، فالصبي إذا اعتزل بقي غمرًا جاهلاً»^(١)، ف«التجربة تُطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها»^(٢)، وقد قيل: «التقلّب في الأمصار، والتوسّط في المجامع، والتصرّف في الصناعات، واستماع فنون القول، مما يزيد الإنسان بصيرة وحكمة وتجربة ويقظة ومعرفة وعلمًا»^(٣).

وقد عقد الجاحظ في البيان والتبيين بابًا (من البّله الذي يعتري من الوحدة وقلة التعرّض للتجارب)؛ فليُنظر^(٤).

ومن مواضع إشارة الأصوليين إلى أثر التجربة وممارسة الحياة في تكوين الملكة: تعريفهم للعقل وبحثهم في قبوله للتفاوت زيادة ونقصًا، وقد وقع الخلاف في ذلك^(٥)، فاختلّفوا في تعريف العقل، وفي تفاوت العقول، وذهب فريق منهم إلى الجمع بين تلك الأقوال بأن اسم (العقل) يطلق بالاشتراك على جميع تلك المعاني، فمنها ما لا

(١) إحياء علوم الدين (٣١٧/٤).

(٢) إحياء علوم الدين (١٨٨/١).

(٣) الإمتاع والمؤانسة (٣٥/٢).

(٤) (٢٢٧/٢).

(٥) انظر: القواطع في أصول الفقه (١٠٠-١٠٢)، البحر المحيط (٨٤-٨٨)، المسودة (٩٧٧-٩٨٣)، التحجير شرح التحرير (٢٥٧-٢٦٩).

يقبل التفاوت - كإطلاق العقل على بعض العلوم الضرورية - ومنها ما يتفاوت الناس فيه قطعاً، كالعقل المكتسب من التجربة^(١)، «فإنَّ مَنْ حَنَّكَه التجارب وهذَّبته المذاهب يقال إنَّه عاقل في العادة، ومن لا يتَّصف بهذه الصِّفة يقال: إنه غبيٌّ غمر جاهل»^(٢)، وفي هذا إشارة إلى ازدياد العقل بزيادة تجاربه وممارساته.

فلا يتمُّ للفقيه العلم بواقع الحياة وطبيعتها إلا بقدرٍ من المخالطة والمعايشة التي تُمكنه من إدراك حاجات الناس وفهم مقاصدهم ومعرفة واقعهم ومعرفة طرق التأثير والتغيير في حياتهم العامة والخاصة، بل تمكَّنه قبل ذلك من تطبيق علمه في الحياة، وبهذا التطبيق تكون الخبرة الحقيقية، فبه يُدرك مشكلات التطبيق وي مارس حلَّها ويختبر معلوماته ويختار آراءه على ميدان الواقع.

ولهذا يقدِّم الحنفية قول أبي يوسف على قول أبي حنيفة في المسائل المتَّصلة بالقضاء؛ لأنَّ أبا يوسف كان قاضياً، فخبرته بالقضاء وأحكامه خبرة عملية واقعية^(٣).

(١) ذهب إلى هذا: الغزالي - انظر: إحياء علوم الدين (١/ ٣١٢-٣٢٥) - والماوردي - انظر: أدب الدنيا والدين ص ١٦ - وعبد الحليم بن تيمية - انظر: المسودة (٢/ ٩٨١) - وابنه أبو العباس - انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٢٨٧) - والطوفي، انظر: شرح مختصر الروضة (٢/ ١٦٠).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٣١٤).

(٣) انظر: شرح عقود رسم المفتي ص ٢٩، نشر العرف (ضمن مجموعة رسائل ابن عابدين ٢/ ١٣٠)، المذهب الحنفي مراحل وطبقاته (١/ ٢٥٢).

ويقول ابن عابدين: رجع أبو حنيفة عن القول بأن الصدقة أفضل من حج التطوع لما حج وعرف مشقته^(١).

وهذا ما تفيدته النظرية البنائية في علم النفس التربوي، إذ تقرّر أنّ المتعلمين يجب ألا يُعطوا مشكلات ميسرة وسهلة، أو تمارين مهارية أساسية، بل بدلاً من ذلك يجب أن يتعاملوا مع حالات مركبة ومشكلات غير واضحة وغير منظّمة، فالعالم خارج المدرسة نادراً ما يكون فيه مشكلات سهلة أو أمور تسير خطوة خطوة بشكل ميسر ومنتظم، فعلى المدارس أن تتأكد من أنّ كلّ طالب يتعرّض لخبرة حلّ المشكلات المركبة، ويجب أن تكون هذه المشكلات مُصمّنة في مواقف وأنشطة واقعية وحقيقية مشابهة للمواقف التي سيواجهها المتعلمون عندما يريدون تطبيق ما تعلموه من مشكلات العالم الحقيقي^(٢).

الشرط الرابع: التكرار:

فتكرار العلم وترداد النظر فيه أصل لا بُدّ منه لتحقيق الملكة في ذلك العلم، وذلك أمر لا خلاف فيه بين العلماء، فطالب العلم يتدبّر طلبه وهو جاهل خالي الذهن، فتتكوّن لديه التصوّرات الصحيحة، لكنها تصوّرات سريعة الدثور وغير موثقة بالبراهين ولا

(١) رد المحتار (١/١٧٢).

(٢) انظر: النظرية البنائية الاجتماعية وتطبيقاتها التدريسية في المنهج ص ٣٢.

مصدقة بالممارسة والتجربة، فإذا ما استمرَّ في الطلب وكرَّر التعلُّم كرة بعد أخرى حصل له من الرسوخ في كلِّ مرة ما لم يكن من قبل، فحصل له مزيد من اتِّضاح التَّصوُّر وزوال الإشكالات، وعرف من الأدلَّة ما يزيده طمأنينة وثقة، وتبين له من سقوط الشبه المعارضة ما يقوي ثباته، وشهد تشابه العلم واطراده وتصديق بعضه بعضاً، وزاول تطبيق العلم على الوقائع وباشر ما في التطبيق من مواجهة العوارض؛ وانتفع من أخطائه في الممارسة كما ينتفع من إصابته، وبكلِّ ذلك يزداد رسوخاً و يقيناً.

وعبارات العلماء بل سيرتهم العلميَّة كلُّها ناطقة بأنَّ الرسوخ ثمرَةٌ للمداومة على الطلب والاستمرار فيه.

يقول الغزالي رحمته الله: «من أراد أن يصير فقيه النَّفس فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء، وهو التَّكرار للفقهِ، حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النَّفس»^(١).

ويقول فخر الدين الرازي: «قد ثبت في العلوم الحِكْمية أن كثرة الأفعال سبب لحدوث الملكات الراسخة... فكل من واطب على صناعة من الصنائع وحرفة من الحرف مدة مديدة صارت تلك الحرفة والصناعة ملكة راسخة قوية، وكلما كانت المواظبة عليها أكثر

(١) إحياء علوم الدين (٥/ ٢١٣).

كانت الملكة أقوى وأرسخ^(١).

ويقول ابن خلدون رحمه الله: «اعلم أن تلقين العلوم للمتعلّمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلًا قليلًا، يلقي عليه أولاً مسائل من كلّ باب من الفنّ هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوّة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفنّ، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفنّ وتحصيل مسائله، ثم يرجع به إلى الفنّ ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفنّ فتجود ملكته، ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصاً ولا مهماً ولا مغلقاً إلا وضّحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفنّ وقد استولى على ملكته، هذا وجه التعليم المفيد، وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاثة تكرارات، وقد يحصل لبعض في أقلّ من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه»^(٢).

ويقول ابن القيم رحمه الله: «كثرة المزاوالت تعطي الملكات، فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة»^(٣).

(١) مفاتيح الغيب (١/١٦٦).

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٠، وانظر: بدائع السلك ص ٣٩٠.

(٣) مفتاح دار السعادة (١/٣٩٢).

ويقول البقاعي: «الإنسان إذا أخذ في طلب علم من العلوم يكون عنه كالأجنبي، فلا يكون له فيه ملكة إلا بعد ممارسة كثيرة»^(١).

ومن البين أن التكرار يقتضي تفرغاً للعلم وتوحيداً للهمة عليه؛ لأن العلم واسع يحتاج في تعلمه إلى زمن متسع؛ ثم تكراره ومعاودته تحتاج إلى أزمدة أخرى، ولأن «تفريق المجالس وتقطيع ما بينها... ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض؛ فيعسر حصول الملكة بتفريقها، وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة؛ لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه»^(٢).

وللتكرار في سيرة العلماء مسالك وصور، منها:

أ - الحفظ:

فالحفظ مسلك تعليمي أصيل لدى علماء المسلمين، فقد جاء عن النبي ﷺ الأمر بحفظ القرآن وتعاهد حفظه^(٣)، والأمر بحفظ

(١) النكت الوفية بما في شرح الألفية (٢/ ٤٠٠).

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩١.

(٣) كما في قوله ﷺ: «تعاهدوا هذا القرآن؛ فوالذي نفس محمد بيده هو أشد تفلثاً من الإبل في عقلها»، رواه البخاري (٥٠٣٣) ومسلم (٧٩١) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ونحوه عن ابن عمر، رواه البخاري (٥٠٣١) ومسلم (٧٨٩).

السُّنَّة وأدائها كما هي^(١)، ثم اتَّبَعَ المسلمون هذا المسلك، فَعُنُوا أتمَّ العناية بحفظ القرآن الكريم، وحفظ سُنَّة رسول الله ﷺ، ثم بحفظ ما استنبط منهما من العلم، أو كان معيناً على فهمهما من لسان العرب، وجاءت سِيرَ العلماء -رحمهم الله- ووصاياهم لطلاب العلم مؤكدة مكانة الحفظ وأثره في إتقان العلم وضرورة طالب العلم إليه، وكتب التراجم وأدب طلب العلم ملأى بذلك.

والحفظ من أكبر الأسباب المعينة على رسوخ الفقه وصيرورته ملكة قارّة، وذلك أَنَّ العلم المحفوظ في الصدر هو المادّة التي ينطلق منها الفقيه في استنباطه واستدلاله، وإذا كانت علوم الشريعة مستمدة من الوحي فبقدر حضور ألفاظ الوحي ومعانيه في قلب الفقيه تكون قدرته على الاستمداد منها والاستنباط من معينها.

وأيضاً، فبقدر حضور أدلة الوحي -وهي الأدلّة المتَّفَقَة التي يصدق بعضها بعضاً- يزداد اليقين بما تدلُّ عليه، وزيادة اليقين هي الرسوخ المعبر عنه بالملكة.

(١) كما في قوله ﷺ: «نَصَرَ الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، فأدّاها كما سمعها، فَرُبَّ مبلغ أوعى من سامع، وَرُبَّ حامل فقهٍ وليس بفقيه، وَرُبَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه»، رواه الترمذي (٢٦٥٩) وابن ماجه (٢٣٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الترمذي، وفي الباب عن زيد بن ثابت عند الترمذي وابن ماجه، وعن جبير بن مطعم عند أحمد وابن ماجه.

والحفظ بعد ذلك يُمسك الفقه من التفُلت؛ فإنَّ فقهاً وفهماً لا قرار له في القلب هو فقه لا قيمة له ولا انتفاع به؛ فعملية التعلم لدى الإنسان لا تتم دون قوَّة حافظة، تُمسك عليه ما تعلَّم، وتمكِّنه من البناء والتأسيس عليه، فالصلة بين (التعلُّم) و(الحفظ) وثيقة جدًّا، فالتعلُّم هو مرحلة الاكتساب الأوَّل للمعلومات، و(الذاكرة والحفظ) مرحلة تخزين المعلومات واستدعائها التي تكون بعد ذلك^(١)، يقول الأعمش رحمته الله: «احفظوا ما جمعتم؛ فإنَّ الذي يجمع ولا يحفظ كالرَّجل كان جالساً على خوان يأخذ لقمة فينبذها وراء ظهره! فمتى تراه يشبع؟»^(٢).

وتماماً لوصيتهم بالحفظ والاهتمام به أرشد العلماء إلى الاعتدال في شأن الحفظ وجعله في منزلته اللائقة به من وسائل طلب العلم، وذلك بالتنبيه على أنَّ الحفظ ليس هو العلم، وأنَّ الحافظ ليس هو العالم، ولكن الحفظ وسيلة لرسوخ العلم وصيانته من آفة النسيان، ومرحلة من مراحل الطلب، وإنما حقيقة العلم: الفهم والفقه؛ فعلى طالب العلم أن يوليَّ جلَّ عنايته وجهده لفقه النصوص وتدبرها ودرسها، يقول ابن عبد البر رحمته الله: «الذي عليه جماعة فقهاء المسلمين وعلمائهم ذمُّ الإكثار دون تفقُّه ولا تدبُّر»^(٣).

(١) انظر: علم النفس التربوي الأسس النظرية والتطبيقات العملية ص ٢٢٣.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٣٧٠).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٢٤).

ب - الاستذكار:

استذكار العلم أحد أسباب رسوخه، فيه حُفِظَ الفقه من التفلت والنسيان، فالنسيان عارض طَبَعِيٌّ ينتج عن الإهمال وعدم الممارسة، فيتلاشى العلم ويضمحل^(١)، وقد قال ﷺ: «إِنَّمَا مِثْلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ، كَمِثْلِ صَاحِبِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ: إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ»^(٢).

يقول ابن عبد البر رحمه الله: «في هذا الحديث دليل على أنَّ من لم يتعاهد علمه ذهب عنه أي من كان^(٣)؛ لأنَّ علمهم كان ذلك الوقت القرآن لا غير، وإذا كان القرآن الميسر للذكر يذهب إن لم يتعاهد، فما ظنُّك بغيره من العلوم المعهودة؟ وخير العلوم ما ضُبط أصله واستُذكر فرعه وقاد إلى الله تعالى ودلَّ على ما يرضاه»^(٤).

ولما في الاستذكار من فائدة بالغة حثَّ العلماء عليه كثيرًا، فجاء عن عليٍّ رضي الله عنه قوله: «تزاوروا وتذاكروا الحديث؛ فإنَّكم إن لم تفعلوا

= ويُنظر في هذا المعنى: الرسالة (ف ١٤٧٧) ص ٥١١، تقويم الأدلة ص ٤٦٩، بداية المجتهد (٣/ ١٢٨٤)، الفقيه والمتفقه (٢/ ١٥٩)، صيد الخاطر ص ٣٨٧، مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٠، كشف الظنون (١/ ٤٤)، أبجد العلوم (١/ ٢٣٩).

(١) انظر: علم النفس التربوي الأسس النظرية والتطبيقات العملية ص ٢٣٥
(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاذه، برقم (٥٠٣١)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، برقم (٧٨٩)، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) كذا، ولعلها: أي علم كان.

(٤) التمهيد (١٤/ ١٣٣).

يُدرس علمكم»^(١)، وقال عبد الله بن مسعود: تذاكروا الحديث فإنَّ حياته المذاكرة^(٢)، وعن علقمة مثله^(٣)، وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: إحياء الحديث مذاكرته فذاكروه، فقال عبد الله بن شداد: يرحمك الله، كم من حديث أحييته في صدري قد كان مات^(٤)، وقال محمد بن شهاب الزهري: إنَّما يُذهب العلم النسيان وترك المذاكرة^(٥)، وقال ابن الجوزي: التَّكرار أصل عظيم، فكم ممن ترك الاستذكار بعد التحفُّظ فضاع زمن طويل في استرجاع محفوظ قد نسي^(٦).

وللاستذكار في سِير العلماء صور، منها:

- إعادة الطلاب للدرس: فعن عطاء بن أبي رباح رحمته الله: كنا نكون عند جابر بن عبد الله فيحدثنا، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه^(٧).

- مذاكرة الأقران: بأن يُطرح طالب العلم أصحابه مسائل العلم، وهذا النوع من الاستذكار كثير جدًّا في سِير العلماء

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٠١)، شرف أصحاب الحديث ص ٩٣.

(٢) شرف أصحاب الحديث ص ٩٤.

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ٩٧.

(٤) جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٠١)، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٤١٠).

(٥) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٦٥).

(٦) صيد الخاطر ص ١٦٣.

(٧) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٣٦٥).

-رحمهم الله-، من ذلك ما جاء عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري أن أباه أتى عمر بعد العشاء الآخرة فقال: «ما جاء بك يا أبا موسى الساعة؟»، قال: نتذاكر الفقه، قال: فجلسنا ليلاً طويلاً نتذاكر، قال أبو موسى: الصلاة! فقال عمر: «إنا في صلاة»، قال: فتذاكرا حتى كان قريباً من الفجر^(١). وقال فضيل بن غزوان: كنا نجلس أنا وابن شبرمة والحارث العكلي والمغيرة والققعاق بن يزيد بالليل نتذاكر الفقه، فربما لم نَقْم حتى نسمع النداء لصلاة الفجر^(٢).

● سؤال المعلم طلابه فيما تعلّموه من قبل وامتحانهم فيه: فمن أدب العالم -كما يقول ابن جماعة-: «أن يطالب الطلبة في بعض الأوقات بإعادة المحفوظات، ويمتحن ضبطهم لما قدّم لهم من القواعد المهمّة والمسائل الغريبة، ويختبرهم بمسائل تُبنى على أصل قرّره أو دليل ذكره، فمن رآه مصيباً في الجواب ولم يخف عليه شدة الإعجاب شكره وأثنى عليه بين أصحابه؛ ليعثه وإياهم على الاجتهاد في طلب الازدياد، ومن رآه مقصّراً ولم يخف نفوره عنّفه على قصوره، وحرّضه على علوّ الهمة ونيل المنزلة في

(١) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٦٧).

(٢) الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٦٨)، تهذيب التهذيب (٣/ ٤٠١).

طلب العلم، لا سيّما إن كان ممّن يزيده التعنيف نشاطاً والشكر انبساطاً، ويعيد ما يقتضي الحال إعادته؛ ليفهمه الطالب فهماً راسخاً^(١).

● تحديث الناس بالعلم: فمن كبير عناية العلماء باستذكار العلم وعظيم ما وجدوا من منفعة أن أحدهم كان إذا لم يجد من طلبة العلم من يذاكره تحدّث بذلك العلم إلى أيّ إنسان أمكن تحديثه به، ولو لم يكن من طلبة العلم أو من يفهم ويتنفع بذلك العلم، وإنما يريدون بذلك تثبيت العلم، وممن روي هذا عنه إبراهيم النخعي والزهري وإسماعيل بن رجاء^(٢).

● تكرار الطالب الدرس في نفسه: فبعد أن يحضر الدرس لدى الشيخ يقوم لاستذكار وتكرار ما تعلّمه في ذلك الدرس، بأن يعرض في ذهنه مسائل الدرس مصوّراً لها مستحضراً الحكم والدليل، ولا بأس في رفع الصوت في ذلك، بل هو أثبت^(٣)، يقول أبو إسحاق الشيرازي رحمته الله:

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ص ٩٤.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٤٠٥)، جامع بيان العلم وفضله (١٠١/١).

(٣) انظر: الجامع لأخلاق الراوي (٢/٣٩٩-٤٠٤)، تذكرة السامع والمتكلم ص ٢٠١-٢٠٢، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢٦/٢١٦)، المجموع (١/٨٨).

كنت أعيد كل درس مائة مرّة، وإذا كان في المسألة بيت شعر يستشهد به حفظت القصيدة كلّها من أجله^(١).

- تعاهد العلم: ومن صور ذلك أن يكون للمرء دورة منتظمة على أبواب الفقه، وقد نقل الإسنوي عن بعض الشيوخ قوله: يقبح لمن يتصدى للإفتاء والتدريس أن يكون عهده بباب من أبواب الفقه أكثر من عام^(٢)، ويحكي الحجوي عن الفقهاء المالكيين قولهم: على المفتي أن يقرأ مختصر خليل كل سنة^(٣).
- استذكار المحفوظات^(٤).

ج - الاختصاص:

سعة العلم وكثرته مع محدودية قدرة الإنسان تجعل من البعيد في العادة أن يكون المرء عالماً متقناً لعدد من العلوم، يكون ذا ملكة فيها ضابطاً لأصولها عارفاً بفروعها قادراً على التحقيق والإضافة فيها، وقد عبّر علماؤنا -رحمهم الله- عن هذا المعنى بعبارات عدّة، يقول الزهري رحمته الله: «لا تكابر العلم؛ فإنّ العلم أودية، فأياها أخذت فيه

(١) المجموع (٤٣/١).

(٢) المهمات في شرح الروضة والرافعي (٩٨/١).

(٣) الفكر السامي ص ٧٢٤.

(٤) انظر: المجموع (٨٨/١)، تذكرة السامع والمتكلم ص ٩٤.

قطع بك»^(١)، ويقول الشافعي رحمته الله لرجل: تريد أن تكتب الحديث وأن تكون فقيهاً؟ هيهات!^(٢)، وقال بعضهم: «من أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه! فإن ذلك إنما تصوّر له لشيء اعتراه»^(٣)، ويقرّر ابن خلدون استبعاد تحصيل الملكة في علمين، وأن من سبقت إليه الملكة في علم أو صناعة ما فإنه لا يجيد بعدها ملكة أخرى، «وهذا بين يشهد له الوجود، فقل أن تجد صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى ويكون فيهما معاً على رتبة واحدة من الإجابة، حتى إن أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المنزلة، ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها في الغاية فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبته بل يكون مقصراً فيه»^(٤).

ويزداد هذا المطلب صعوبةً وبعداً مع ما نعيشه في هذا العصر من تطوّر حضاريّ وعلميّ سريع، وما فيه من اتّساع المكتشفات العلمية وكثرة النوازل وسرعة التغيّرات.

وإذا كان الأمر كذلك فاللائق بطالب الملكة الفقهية هو الاختصاص بعلم الفقه وتوفير عنايته عليه ليخرج من ذلك بعلم

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/١٠٤).

(٢) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم ص ١٣٥.

(٣) الحث على طلب العلم ص ٧٠.

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٥، وانظر: الآداب الشرعية (٢/١٢٥)، التعليم والإرشاد ص ٢٤٢-٢٥٤.

راسخ وملكة قويّة، مع الاجتهاد في أخذ المهمّ من كلّ علم؛ فإنّ ذلك ينفعه في العلم الذي اختصّ فيه.

يقول ابن الجوزي رحمته الله: «اعلم أنّه لو اتّسع العمر لم أمنع من الإيغال في كلّ علم إلى منتهاه، غير أنّ العمر قصير، والعلم كثير... فمن كان ذا همّة ونصح نفسه تشاغل بالمهمّ من كلّ علم، وجعل جلّ شغله الفقه؛ فهو أعظم العلوم وأهمّها»^(١).

ويقول أبو العباس المبرد رحمته الله: «ينبغي لمن يحب العلم أن يفتنّ في كلّ ما يقدر عليه من العلوم، إلا أنه يكون منفردًا غالبًا عليه منها علم يقصده بعينه ويبالغ فيه»^(٢).

ويقول ابن حزم: «من طلب الاحتواء على كلّ علم أوشك أن ينقطع وينحسر ولا يحصل على شيء، وكان كالمُحَضَّر إلى غير غاية؛ إذ العمر يقصر عن ذلك، وليأخذ من كلّ علم بنصيب، ومقدار ذلك: معرفته بأعراض ذلك العلم فقط، ثم يأخذ مما به ضرورة إلى ما لا بُدَّ له منه كما وصفنا، ثم يعتمد العلم الذي يسبق فيه بطبعه وبقلبه وبحيلته فيستكثر منه ما أمكنه»^(٣).

(١) صيد الخاطر ص ٣٨٧.

(٢) صناعة الكتاب ص ١١٦.

(٣) مراتب العلوم (ضمن: رسائل ابن حزم الأندلسي ٤ / ٧٧-٧٨).

د - إدامة النظر في كتاب أو كتب من كتب الفقه العالية:

نلاحظ في سيرة بعض الفقهاء إيلاءهم عناية خاصّة لكتاب أو كتب محدودة العدد، فيدرسونها دراسة دقيقة، ويكرّرون تلك الدراسة.

يقول المزني -التلميذ الأنجب للشافعي-: أنا أنظر في كتاب الرسالة منذ خمسين سنة، ما أعلم أني نظرت فيه مرّة إلا وأنا أستفيد شيئاً لم أكن عرفته^(١).

ويحكي ابن سريج شدة ملازمته لمختصر المزني ودوام نظره فيه، وما يجتنيه منه من صقال الذهن والعلوم المتنوعة فيقول:

لصيق فؤادي منذ عشرين حجة

وصيقل ذهني والمفرج عن همي

عزيز على مثلي إعارة مثله

لما فيه من علم لطيف ومن نظم

جُموع لأصناف العلوم بأسرها

فأخلق به ألا يفارقه كمي^(٢)

ويقول الأبهري المالكي: قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمسمئة مرّة، والأسدية خمساً وسبعين مرّة، والموطأ خمساً وأربعين مرّة،

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/ ٩٩)، المجموع (١/ ٣٣).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٣/ ٣١).

وقرأت المبسوط ثلاثين مرّة^(١).

والزيرباني الحنبلي يذكر أنّه طالع (المغني) ثلاثاً وعشرين مرّة، وله عليه تعليقات وحواشٍ^(٢).

ويذكر الشيخ محمد بن عثيمين رحمته الله عن بعض مشايخه: أنّ الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين - رحمه الله، وهو من أكبر مشايخ نجد، مفتي الديار النجدية - كان مكبّاً على الرّوض المربع، لا يطالع إلا إياه ويكرّره، كلّما انتهى منه كرّره، لكن يأخذه بالمفهوم والمنطوق والإشارة والعبارة^(٣).

هذه نماذج لما عليه العلماء من إيمان النّظر وتكراره في كتب العلم العالية، ويلحظ في هذه الكتب التي اختارها أولئك العلماء ملاءمتها بما يشحذ الملكة، وذلك بما تحويه هذه الكتب من أدلّة وأقوال ومناقشة وبيان للمآخذ، كما أنّ فيها تحويه من المسائل الكثيرة تمريناً عملياً متكرّراً على الاستنباط والقياس وغير ذلك من الملكات الفقهية، مع ما يستفيده النّاظر فيها من استذكار المعلومات، فهي كتب للمران على صواب النّظر وصحّة الفكر الفقهيّ قبل كونها جوامع لمسائل الفقه، ويصف الدكتور عبد الكريم بكار هذا النوع من الكتب بقوله:

(١) ترتيب المدارك (٦/ ١٨٦).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ٢).

(٣) انظر: مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢٦/ ١٧١).

«هناك عدد من الكتب... يشعر قارئه أَنَّهُ لم يستفد كَلِّ ما فيه مهما استخدم من مهارات القراءة، وأَنَّهُ يستحق عودة ثانية، ولكن إذا عاد إليه المرء مرة ثانية لم يجد فيه ما كان يؤمِّله منه، والسبب أَنَّ فهم القارئ قد ارتقى بسبب قراءة ذلك الكتاب وبسبب قراءة غيره...

هذا النوع من الكتب يحتاج إلى حسن اختيار أوَّلًا، وإلى اهتمام بالغ من القارئ به، إضافة إلى استخدام مهارات عالية في قراءته، والرجوع إلى بعض الشروح والمراجع...

هذا النوع من الكتب نادر جدًّا... وهو نوع لا ينضب محتواه، وكلَّما عدت إليه شعرت أَنَّهُ ينمُّيك، وكأنَّه ينمو معك، فتكتشف فيه أشياء جديدة كلَّما عدت إليه... وهذا النوع من الكُتب هو الذي يتطلَّب من الإنسان أَن يقرأ على نحو مستمرٍّ حتى يؤهِّل نفسه للارتقاء إلى مستواه، واستكناه محتواه وذخائره، ومهما استخدم القارئ من أشكال المقاربة له وحاول اجتراحه فإنه يشعر أَنَّهُ ما زال بحاجة إلى المزيد، حول هذه الكتب أقيمت عشرات الدُّراسات والشروح والحواشي»^(١).

هـ - التعليم:

التعليم صورة من صور تكرار العلم واستذكاره الذي به يُحفظ

(١) القراءة المثمرة ص ٦٠-٦١ بتصرف يسير.

العلم من آفة النسيان والتفُلت، فإذا كان الفقيه مزاولاً للتعليم حفظ علمه وازداد فيه رسوخاً.

قال عبد الله بن الحسن: «وجدت أحضر العلم منفعة ما وعيته بقلبي ولُكِّتَه بلساني»^(١).

وقيل: ما صِين العلم بمثل العمل به وبذله لأهله. وقالوا: النار لا ينقصها ما أخذ منها، ولكن ينقصها ألا تجد حطباً، وكذلك العلم لا ينقصه الاقتباس منه ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه^(٢).

وكان يقال: علِّم علمك من يجهل، وتعلِّم مَنْ يعلم، فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت، وحفظت ما علمت^(٣).

وفي ترك التعليم ذهاب العلم واضمحلاله، قال مكحول رحمته الله: قدمت دمشق وما أنا بشيء من العلم أعلم مني بكذا - لباب ذكره من أبواب العلم - فأمسك أهلها عن مسألتي حتى ذهب! ^(٤).

وقال عروة بن الزبير: «والله ما يسألني الناس عن شيء؛ حتى لقد نسيت!»^(٥).

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٣٧٣/٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٢٤/١).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١٠٣/١).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٨٩/١).

(٥) جامع بيان العلم وفضله (١١٧/١).

ولهذا يكون انقطاع العالم عن التعليم أمراً محزناً، قال عطاء بن السائب: كان سعيد بن جبير بفارس، وكان يتحزن، يقول: ليس أحد يسألني عن شيء! ^(١).

ولذا أسرع سفيان الثوري في الخروج من بلد لا يُتاح له فيها التعليم، قال رواد بن الجراح: قدم سفيان الثوري عسقلان، فمكث ثلاثاً لا يسأله إنسان عن شيء. فقال: اكتر لي، أخرج من هذا البلد؛ هذا بلد يموت فيه العلم! ^(٢).

و - الاستمرار في طلب العلم:

إذا كان الرسوخ ثمرة مزاولات متكررة فلا بُدَّ أن يكون للاستمرار في طلب العلم شأن في الرسوخ ونيل الملكة، وقد قال سعيد بن جبير وعبد الله بن المبارك -رحمهما الله-: لا يزال الرجل عالماً ما تعلم، فإذا ترك العلم وظنَّ أنه قد استغنى واكتفى بما عنده كان أجهل ما يكون ^(٣)، وشاهد هذا قوله تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤]، أمر الله تعالى نبيّه باستزادته من العلم مع ما أعطاه من العلم والنبوة.

(١) الطبقات الكبرى (٦/٢٥٩)، سير أعلام النبلاء (٤/٣٢٤).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٤٢٠).

(٣) كلمة سعيد بن جبير في تذكرة السامع والمتكلم ص ٦٠، وكلمة عبد الله بن المبارك في: المجالسة وجواهر العلم (٢/١٨٦).

وجاء عن أبي حنيفة أنه قال: قدمت البصرة فظننت أني لا أسأل عن شيء إلا أجبت عنه! فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب؛ فجعلت على نفسي ألا أفارق حمّاداً حتى يموت، فصحبته ثماني عشرة سنة^(١).

وقال مالك: كان الرجل يختلف إلى الرجل ثلاثين سنة يتعلّم منه^(٢).

وقال عبد الله بن وهب: خرجت أنا وابن القاسم بضع عشرة سنة إلى مالك، فسنة أسأل أنا مالكا، وسنة يسأله ابن القاسم^(٣).

ز - تقدّم السنّ:

يُعدّ تقدّم العالم في السنّ مزية من المزايا المرجحة لذلك العالم على غيره، وهي تتضمّن دلالة على مزيد رسوخه في العلم، فالسنّ عند الفقهاء أحد معايير التفضيل بين العلماء عند أخذ العلم منهم واستفتائهم.

جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوله: «لن يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أتاهم من قبل أصاغرهم هلكوا»^(٤)، وجاء عنه أيضاً قوله: «الشباب شعبة من الجنون»^(٥).

(١) تاريخ بغداد (١٢/٣٣٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/١٠٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٩/١٢٠).

(٤) رواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢/١٥٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/١٥٩-١٥٩).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الزهد، كلام عبد الله بن مسعود، برقم (٣٤٥٥٢)، (٧/١٠٦).

وفي وصف النبي ﷺ الخوارج بحدائث السنن في سياق الذم^(١) إشارة إلى أن علو السنن منقبة وفضيلة، قال القاضي عياض: «فيه أن التؤدة والتثبت وقوة البصيرة مع الشيخ وكمال السنن؛ لقوة العقل وصحة التجارب وسكون غلبة الدم المثير لكثرة الحركة، وترك التوفر»^(٢).

ويقول الخطيب البغدادي رحمه الله: «وإذا ذكر له -يعني: المستفتي- اثنان أو أكثر بدأ بالأسن والأكثر منهم رياضة ودربة»^(٣).

وإنما كان تقدّم السنن أحد معايير التفضيل، لما يتضمّنه من كثرة التجارب العلمية والحياتية وتكرّرها، وذلك أمر يزداد به العقل اكتمالاً ويزداد به العلم رسوخاً واستواءً، فإذا كان المرء سالكاً جادة الفقه فلا شك أنه سيزداد مع السنن رسوخاً وتمكّناً، ومردّد هذا الرسوخ إلى تكرّر التجارب العلمية وتراكم الخبرة الناشئة عن دوام المزاولة وكثرة النّظر وممارسة تحقيق المناطات على الوقائع.

(١) في قوله ﷺ: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة»، رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٦١١)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، برقم (١٠٦٦)، عن علي رضي الله عنه.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٣/ ٦٢٠)، وانظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٧٢/ ١).

(٣) الفقيه والمتفقه (٣٧٩/ ٢).

يقول ابن قتيبة رحمه الله مبيّنًا وجه كلام ابن مسعود السابق (لن يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم...): «يريد: لا يزال الناس بخير ما كان علماءهم المشايخ، ولم يكن علماءهم الأحداث؛ لأنَّ الشيخ قد زالت عنه مِيعَة الشباب وحدثه وعجلته وسفهه، واستصحب التجربة والخبرة؛ فلا يدخل عليه في علمه الشُّبهة، ولا يغلب عليه الهوى ولا يميل به الطَّمع، ولا يستزلّه الشيطان استزلال الحدث، ومع السَّنِّ الوقار والجلالة والهيبة، والحدث قد تدخل عليه هذا الأمور التي أمنت على الشيخ، فإذا دخلت عليه وأفتى هلك وأهلك»^(١).

ويقول علماء النفس: إنَّ الذكاء يتوقف عن الزيادة بعد سنِّ الثامنة عشرة تقريبًا، وإنَّ الفرق بين عقول الشباب وعقول الكبار لا يعود إلى ازدياد في نموِّ الذكاء، ولكن إلى ازدياد الخبرة، فلو وُجِّهت أسئلة للذكاء لا تعتمد على الخبرة لمجموعتين إحداهما من الكبار والأخرى من الصغار فإننا لن نجد بينهما فرقًا يُذكر^(٢).

(١) الفقيه والمتفقه (٢/١٥٦).

وقد فُسِّر أخذ العلم عن الأصاغر أيضًا: بأنه أخذ العلم عن أهل البدع وترك أقوال الصحابة رضي الله عنهم، وفُسِّر الأصاغر أيضًا بالجهال وإن كانوا كبارًا في السنِّ. انظر: جامع بيان العلم وفضله (١/١٥٨-١٥٩)، الفقيه والمتفقه (٢/١٥٥)، الاعتصام (٣/١٠٠).

(٢) انظر: علم نفس المراحل العمرية ص ٣١٢، ٤٣٦-٤٣٧.

فمزية (السَّن) تعود إلى كونها مظنة لمزيد من العلم والرسوخ المحصّل من التجارب، وليست مزية مطلقاً، وإذا كان مردّ تلك الفضيلة إلى ازدياد التجارب واجتماع الخبرة فإنّ تقدّم السَّن إنما يكون مفيداً بمقدار عمارة المرء لعمره بالعلم والخبرة النافعة، وإذا خلا عن ذلك فإنّ تقدّم السَّن قد يكون مظنة لنسيان العلم واندثار الملكة، فذو السَّن إنما يُقدّم على من دونه عند التساوي في العلم، وأما إذا تقدّم الأحدث سناً في العلم فكثيراً ما يكون هو المقدم^(١)، وقد قيل:

وإن كبير القوم لا علم عنده

صغير إذا التفت عليه المحافل^(٢)

وقد «كان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً»^(٣)، ومما يبيّن ذلك -أعني: كون تقدّم السَّن مظنة الفضل والرسوخ وليس فضلاً في نفسه-: ما جاء في السُّنة من بيان الأحقّ بالإمامة في الصلاة، في قوله ﷺ: «يؤمّ القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسُّنة، فإن كانوا في السُّنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً»^(٤)، ففي

(١) انظر: كشف القناع (١٥/٣٤)، وانظر: ما تحت الأفتحة ص ٣٥١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/١٥٩).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، برقم (٧٢٨٦)، من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، برقم (٦٧٣)، عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

تقديم القراءة والعلم والهجرة على السنّ ما يشير إلى أنّ السنّ مظنة فضل، فتُقدّم عليه حقيقة الفضل إذا عُلِمَت.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الصفحة	العنوان
٥	المقدمة
٧	التَّعْرِيفُ بِالْمَلَكَةِ الْفَقْهِيَّةِ
٩	الملَّكة في اللِّسان العربيِّ
٩	الملَّكة في الاصطلاح
١٣	من عبارات العلماء عن الملَّكة الفقهيَّة
١٨	خصائص الملَّكة الفقهيَّة
٢٢	الكلمات المرادفة للملَّكة في لسان السَّلف والعلماء
٢٨	الملَّكة الفقهيَّة اصطلاحًا
٣١	شروط اكتساب الملَّكة الفقهيَّة
٣٦	الشرط الأول: الاستعداد الفطريُّ
٣٦	أ - الذكاء
٤١	تنوُّع الذكاء
٤٤	هل الذكاء وراثيُّ أو مكتسب؟

٤٨	ما العمل عند نقص الذكاء الفطريّ؟
٥٧	ب - الطبيعة المعتدلة
٦١	ماذا يجب على المتفقّ حيال أخلاقه المائلة عن الاعتدال؟
٦٢	ج - الرغبة في اكتساب الملّكة الفقهيّة
٦٦	الشرط الثاني: العناية بالقواعد والكلّيات
٧٠	الشرط الثالث: الممارسة المباشرة
٧٤	أ - العمل بالعلم
٧٦	ب - أخذ العلم عن العلماء الرّبائيين
٨١	ج - إعمال الفكر في التفقّه
٨٢	د - المباحثة
٨٦	هـ - النظر في أقوال الفقهاء وكتبهم للتفقّه بها لا للتقليد
٩١	و - تنوُّع مصادر العلم
٩٦	ز - التعليم
٩٨	ح - البحث والتأليف

١٠٠	ط - المناظرة
١٠٣	ي - التجربة وممارسة الحياة
١٠٧	الشرط الرابع: التكرار
١١٠	أ - الحفظ
١١٣	ب - الاستذكار
١١٧	ج - الاختصاص
١٢٠	د - إدامة النظر في كتاب أو كتب من كتب الفقه العالية
١٢٢	هـ - التعليم
١٢٤	و - الاستمرار في طلب العلم
١٢٥	ز - تقدُّم السنِّ
١٣١	فهرس المحتويات